عباءة قوس قزح

مجموعة قصصية

جهاد مقلد " نبيل "

ديوان العرب
للنشر و التوزيع

دار ديوان العرب للنشر و التوزيع – مصر - بورسعيد

اسم العمل : عباءة قوس قزح

اسم المؤلف : جهاد مقلد "نبيل"

الجنسية : سوريا

التصنيف الأدبي : مجموعة قصصية

الترقيم الدولي : 978 - 977 – 6707 - 39 – 0

رقم الإيداع : 14449 / 2019

تدقيق لغوي : هبة ماردين

تصميم الغلاف : محمد وجيه

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : 00201211132879

إهداء...

إلى مؤسسة دار ديوان العرب، وصاحبها الأستاذ محمد وجيه وكلّ من يعمل في الدار.
أقول: لاظل بلا نور ولانور دون ظلال...بداية أحيي الشمس الساطعة المتمثلة بديوان العرب المشرقة بانجازاتها الأدبية... وما تنشرمن ظِلال نورها على الكاتب والكتاب، وتدعم لغة قرآننا الكريم... وثانياً تقديري واحترامي للأستاذ محمد وجيه على مهمته التي حملها أمانة على عاتقه وهي إحياء تراث أمتنا الأدبي، وعمل على وصل الُلحمة بين القارىء والكتاب في زمنٍ عزّ فيه تصفح الورق... وما يقوم بدعوة لتشجيع القراءة والمطالعة والكتابة ونشر للثقافة...
تحية إعجاب وأكبار خاصة.. للمتألقة السيدة المبدعة الأستاذة [فادية محمد هندومة] لحسن إدارتها لمجموعة ديوان العرب و تفاعلها الطيب مع منشورات الأصدقاء ومساهمتها في إغناء الأدب العربي بالحرف الراقي والكلمة المعبرة.
وثالثاً: تحيتي لجميع العاملين في الديوان في الطباعة والنشر والتوزيع، والأخوة الذين يشاركون بروائع أقلامهم البهية في دار العز... ديوان العرب للطباعة والنشر

جهاد مقلد\ سوريا

إهداء خاص

أهدي هذا الكتاب إلى شمسي الساطعة... وداعمة هوايتي منذ أشرقت

وربانة سفينة بيتي... القائدة الماهرة في خضم بحر الحياة العاتي

ودفة شراعه المتين زوجتي الغالية ورفيقة دربي

أم طارق (نضال فضل الله مقلد)

التي تدعم وتشجع هوايتي على حساب وقتها

ووقت مملكتها الصغيرة...

تزهو وتفتخر بنجاحي...

سارية عالية أطال الله بعمرها

جهاد مقلد

****

مقدمة

الإنسان آلة الزمن المدبرة والمدمرة في آنٍ واحد، يصنعُ الخيرَ من جهةٍ... ويرسلُ الموتَ والدمارَ من جهةٍ أخرى... يدّعي النزاهةَ من جهةٍ... ويسلبُ مال الله ومقدراتِ عباده من جهةٍ أخرى... يتبع تعاليم الله عند خوفه من السقوط... ويخالفها حين يأمن السلامة...
يتلون ما طاب له، ويلتف بعباءة...ما أشبهها بعباءة قوس قزح الملون... لكن ليس بجماله، وحين يعود إلى الصواب يكون قد تلاشى قوس قزح وبقيت صبغته منفردة... يستأنس بالغفران، وينسى أنَّ لا غفران إلا بميزان... والله أعلم...

(ولا نُعمِمْ) وما نعلمه أنَّ الله سبحانه سلّمَ لكلِّ فرد عقلاً وجعل بيده مفتاحاً يفتح به باب جنته أو باب جحيمه... هذه المجموعة القصصية، عبارة عن حكايات مختلفة من حياتنا بأسلوب يعتمد على الواقعية والمنطق وملامسة جميع الأذواق، لا رمزية مبطنة ولا تأويل يعطل متعة المتلقي

نبيل...جهاد نصر مقلد\ سوريا

رؤية عامة للكتاب

عباءة قوس قزح

تأليف الكاتب (نبيل)... جهاد نصر مقلد

المجموعة الأولى (1)

مجموعة من الحكايات القصصية متنوعة

(24) قصة قصيرة، القصة الآخيرة طويلة

تحمل هذه المجموعة القصصية في طياتها الكثير من آلام بعض الناس ومشكلاتهم الاجتماعية والنفسية والاقتصاية، التي لم أجد لها عنواناً يليق بها أكثر من

(عباءة قوس قزح)

يحمل هذا الاسم الكثير من إبداع الخالق في خلقه... نجد بهذه المجموعة... الواقعية المرئية التي تلامس حياة الأسرة والمجتمع العربي بشكلٍ عام... هذا ولا يمكن لإنسان لم يشاهد هذه الإعجوبة الربانية إلّا وخضع لجمال تكوينه،

وأثار فيه أجمل المشاعر والأحاسيس...
بهذا المنطق التصوري يتمثل الخلق بإعجاز الخالق ويخضع لإرادته سبحانه... أما في عقل الإنسان الفلسفي والمنطقي فهو يمثل الطبائع البشرية ويلامس الحقائق على أرض الواقع المحسوس والملموس... فيه نجد التلون السلبي للإنسان في أعماله، ولدينا عبرة في صفاء ألوانه في النوايا والعمل... كلّ هذا التقارب بين إعجاز التكوين والمشاهدة نلمسه ما بين العنوان والحكايات باختلاف أحداثها... لقد أرسل الله الأنبياء، منذ عهد نوح عليه السلام حتى خاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من أجل هداية البشرية إلى التحاب والإيمان
والتعاون يبين الأفراد...
أرجو الانتباه إلى أن ضمن المجموعة قصة خيالية هي ((الأرجل الطويلة))
وقد نوهت في مقدمتها على أنّها (من حكايات وأساطير الأجداد) فمن لديه حساسية أو خوف من تلك القصص أتمنى عليه عدم قراءتها... أما بقية القصص فقد جاءت من أعماق البيوت ومعاناة الإنسان في جميع مجالات حياته.

وتجارب الآخرين وما يجب أن نتجنبه ونتجنب وقوعنا في الخطأ المتكرر، تطبيقاً للمثل الشعبيّ الآتي من تجارب الأجداد خلال مئات القرون:

(من جرب المجرب عقله مخرب)

في حياتنا وتعاملاتنا... وعساني بها أرضي بعض الأذواق... وفي تنوع تلك الحكايات بعض التوجهات التربوية، والأخلاقية، والإنسانية، والواعظة، والقضايا الجنائية...

وأقول:

إنَّ الإنسانَ عبدٌ لشهواته من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى سيدها... قد يرى البعض مبالغةً في هذا الكلام، وقد تأخذه المثالية برفض الفكرة، ويعزو رفضه هذا لفهمه لبعض الآيات القرآنية أو بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه بحيث يفسرها أنَّ الإنسانَ مسيرٌ في جميع تصرفاته، ونحن هنا لسنا في موضوع حواري ديني فلسفي... إنّما أحداث قصصنا في هذه المجموعة التي بين أيدينا الآن تفرض علينا التطرق إلى مثل هذا الموضوع...

سيمر القارئ على تلك القصص بعد قليل ليكتشف الكثير من التصرفات الفردية اللا مسؤولة... من خداعٍ ونفاقٍ واحتيالٍ وإجرامٍ... ومداهنةٍ.

وفي الوقت نفسه سيقرأ ما يحويه الجزء الآخر المملوء من الكأس...

في البداية وقبل أن نبتعد عن الفكرة نقول بأنَّ الله سبحانه أرسل ما أيّدَ هذا الكلام في مجمل آياته البينات، ثم أكده الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في أحاديثه ولا يخفى على العاقل بأنَّ الخير والشر هما بضاعة دنيوية...

القصص التي أمامكم هي عبارة عن تشكيلة من الأحداث وقعت يوماً، أوممكنة الوقوع في أيّ وقت... إنَّ أكثر شخوص تلك الحكايات بدون أسماء علم... لكن يتم الإشارة إلى الأبطال بإضمار الفَعَلَة... لأنَّ الأحداث عبارة عن حالات استثنائية كما نوهنا قد تقع وقد لا تقع... وفي حال وقوعها لن تختص ببلدٍ معيّنٍ أو دينٍ أومعتقدٍ أو لون...

وأكثرها قصص تراثية توجيهية... وقصص اجتماعية أسرية... وحكايات من أساطيرالأولين، وإلى من يخاف من قصص الأساطير... إن كان لابد له من قراءتها... يقرأها نهاراً أقلّه ...

أيضاً بعض القصص البوليسية أو ما تميل بأحداثها لها...

في مجملها قصص إنسانية أدبية تحاكي الواقع المعيشي للإنسان العربي...

نبيل... جهاد نصرمقلد / سوريا

****

محتويات الكتاب	
إهداء	3
إهداء خاص	4
مقدمة	5
رؤية عامة للكتاب	6
1_ وطن ترعاه السماء	15
2-وأُغلق الصندوق	23
3 _ بائع الفول	28
4 _ كلمة حق	35
5_ ملف البراءة	38
6 _ الطالب و الراقصة	47
7_ المقامر	56
8_ يقظة ضمير	66

9_ أم محمد	71
10_ عروس في الطائرة	77
11_ الأرجل الطويلة	86
12_ خطأ حسابي	96
13_ لصوص الظلام	103
14_ شر الحسد	110
15_ أم سعيد	114
16_ الساحر والغبي	120
17_ الهارب	127
18_ بداهة و ذكاء	136
19_ صفقة خاسرة...	141
20_ سامحيني يا أمي...	152
21_ عيد سعيد	158
22_ لعبة القدر	165

23_ أغلى الهدايا	**172**
24 _ الكنز	**177**

******

الوطن روح الإنسان وهبة من ربه،

اسمه من والديه، دينه من قومه

جنسيته من وطنه،

وجسده لترابه.

" وطنٌ ترعاهُ السماء "

لم يكَدْ ينتصفُ ذلكَ اليوم الرهيب، حتى كان أزيزُ القذائف يثيرُ الرعبَ في النفوس، خاصة عند مرورها من فوق بعض البيوت، فترسلُ الموتَ والدمار على من ساءَ حظهم، ووقعتْ على بيوتهم وتتركُ أثارها المدمرة، وتبثُ الخوفَ والموتَ في الأماكن التي تسقطُ فيها، وتجعلُ الرعبَ يسيطرُ على قلوب الجميع، في الشوارع وفي المحالِ التجارية وفي المنازل.

قذائفٌ عمياء تتساقط عشوائياً في كلِّ مكان داخل المدينة... مدينةٌ كانت آمنة قبل قليل يحلم الجميع بما يبني لهم السعادة، هذا يريد تزويج ولده وذاك يبحث عن المستقبل في سفرٍ يحلم به، وطالبٌ ينتظرُ نتيجتَهُ لكنَّ الجميع لم تصل الأفكار بهم إلى أن تصل الأمور إلى حدِ الدمار والموت في بلدٍ كَثُرَ الطامعين في سرقةِ أمنه واستقراره، ومن لعب الشيطان الأكبر بعقولهم، وقدَّمَ لهم أحلاماً مستحيلةَ التحقيق، إلّا أنَّ العقول تعمل بما

حَوَتْ؛ فمنها المتزنة التي يهمها أمن بلدها ومنها من لا يهمه سوى ما يوضع في جيبه، ومنها من تسيطر على تفكيره غايات شخصية وحُبّ الانتقام، لكنَّ الإرهاب لا يرحم فالقذائف لاتعرف هوياتهم لتفرق بينهم وبين الآخرين...

وهنا في هذه الغرفة...

صراخُ الأطفالِ يملأُ المكان، والرعبُ يخنقُ ساكنيها في أقبيةٍ لِمَنْ تيسر لهم ملجأً وهم قلة... يخنقُ العقولَ، ويحرقُ الأنفاسَ لِمَنْ سَلَّمَ أمره لقدره، ولا ملجأ لأحدٍ سوى الدعاء والصبر

لم تجرؤ الأمُّ أن تُبدي ضعفها، أو ما يعتري طبيعتها الأنثوية من ضعفٍ وهلعٍ أمام صغيريها، ها هما يصرخان ويستنجدان بأمِّهما التي لن تستطع أن تقدم لهما سوى حُضّنها، وحَضنَهُما للدفاع عنهما.

فبعد كلّ صفيرٍ يعقبه انفجارٌ يُحدِثُ دويّاً هائلاً يهتزُّ له البيت، وترتجُ له الأبنية المجاورة.

أما البناء الذي تصيبه قذائف الغدر فيسجدُ بنيانه خاضعاً، وشاكياً لربه حياة ساكنيه

هناك جلستْ أنثى لايهمها مصيرها ولا خوفها على حياتها، بل تدعو الله دوماً أن تكون فداءً لمن تحتضن أطفالها... وحياة زوجها الواقف كغيره من المناضلين على جبهة القتال يدافع عن بلده... الجندي المكلف بالبحث عن مصدر القذائف ومطلقيها! أخيراً توقفت القذائف... عاد الزوج ليطّمئن على أسرته، بعد أن استطاع ورفاقه القبض على بعض الجُناة وفرار البعض... اللحظة توقفتْ أعمال الغدر!! قُرع الباب... لم تكن الأم بحاجة لمن يقول لها أنَّ زوجها الطارق، لهفة عقلها وإحساسها الداخلي يخفق في صدرها ويشيرُ لها من هو القادم.

تحول وجهها المرعوب إلى صفحة كتاب تُقرأ سطوره بلمسات زوجها الحانية وقبلته الهامسة بمكنون صدره... تحولت دقات قلبها المتسارعة إلى نغماتٍ مفرحةٍ... وإن كانت لم تطمئن لهذا الهدوء... فقلب الأمِّ لا يخطئ

ولم ينقطع إحساسها بالخوف، كأنَّ هناك شيئاً ما في عالم الغيب يُحدّثُها بشيءٍ ما سيقع ولا تدري كنهه.

جلستْ هي وولديها وزوجها يتناولون الطعام، وتحولَ الخوف عند الطفلين الآن إلى نزاع على من ستحضنه أمه.

والتصقت هي بزوجها لتستشعر الأمان أكثر.
دخلتْ مطبخها، ولكن صفير القذيفة لم يستغرق سوى عِشْرَ الثانية، عندما زعقَ صوتها بأذنيها! لا تعلم المسكينة متى استفاقت ولا أين هي، نظرت حولها وهي تتلوى من الألم، كلّ شيء حولها
تنظر الآن من نافذة المستشفى إلى البعيد وتستعيد ذكريات ثمانِ سنوات من عمر أزمة طالت البلد وكانت أسرتها إحدى ضحاياها... فوضى أرادوها للبلد... قتلت البشر ودمرت الحجر... تذكرت المسكينة كيف فتحت عينيها أول مرة في المستشفى، بعد أنْ قدرَ الله لها النجاة.

حتى اليوم لم تعد تجد دموعاً تذرفها. جفت مآقيها، وندر الدمع وأصبح البكاء غصة والحزن تجاعيد... لم تنسَ مصيبتها بأغلى ماعندها تنظر بأسى لكلِّ جريح قربها يشاركها المصيبة.
يدخل الزوار فتبتسم لكلِّ طفل يرافقهم... تقارن... هذا يشبه ابني وتلك كأنّها ابنتي وذاك أطول من زوجي...

تناجي نفسها وهي تقارنُ بين سعادة زالت ومأساة أبادت أسرتها بالكامل، تصورُ لها مخيلتها ماذا لو كانوا أحياء؟ كيف سيكونوا الآن؟ تسأل جارتها في السرير المجاور وتقول:

_ أتردين كم مر عليَّ هنا؟

_ لا أعلم ولكنّني قبل سنين جئتُ اتعالج من إصابتي أول مرة؛ فكنتِ فاقدة الوعي ولا تشعرين بما حولك.

نظرت إلى السرير الأبعد نادتها: تسأل السؤال نفسه، تبسمت الأولى...

_ لن ترد عليك لقد فقدت ذاكرتها

_ وهل للزمن قيمة الآن، لا بأس عندما أعود إلى بيتي سأسأل الجيران... وأجهشت بالبكاء وقالت: نعم إن كان هناك جيران باقين؟!

تذكرت كلّ شيء... ولديها الشهيدين... زوجها كبير الشهداء...فتحت شبرها ونادت طفلاً... وضعت خنصر شبرها على رأسه وقالت:

كيف أصبح ولدي اليوم لو أنّه مازال حياً؟ غالبها بكاء مرّ... وقبل أن تنتهي الموجة أمسكت بفستان أخت الطفل التي تقف مشدوهةً أمام ما تفعله تلك المرأة...

_ وبصوت متقطع يحرق القلب... من أين اشتريتيه إنّه نفس فستان ابنتي

وهكذا آلام نفسية، ومعاناة لا تُنسى، فكلّ شيء يذكرها بأسرتها التي تركت لها الدنيا، تناجي ربها متسائلة: لماذا ياربي أبقيت روحي وأخذت أرواحهم؟ أليس الأولى أن أفديهم أو أكون معهم؟ أو يكونوا معي...

لا يوجد حولها في الأسِرّة سوى أراملٌ وأطفال وسيدات فقدنَ أزواجهن، أو أولادهن أوكلاهما كما حالها الآن!

جاء اليوم الأخير على حربها الضَرُوس مع إصابتها، وجاءَ من يبشرها بالخروج... وعادت الأنثى إلى منزلها عودة المهزوم نفسياً وجسدياً ...

لا أسرة بقيت لها... ولا تستطيع أن تحضن أو تحتضن!

عادت جسداً بلا روح

دخلت الغرفة التي خرجت منها محمولة قبل سنوات...

نظرت إلى الأرض حيث تقطعت أوصالها... نظرت إلى

فتحة السقف التي صنعتها القذيفة...
ترنحت... قبّلت الأرض... وقَابلت خالقها...قضت الأسرة بالكامل شهداء للوطن،

وبقي وطنٌ ترعاه السماء...

****

الأم هي آلة الحياة لا تكل ولا تمل...
تضحك لك وقلبها باكٍ ....
سعيدة فقط لأنّك سعيد...
تشبع بعينيها وبطنها جائع

" وأُغلِق الصندوق "

رحماكِ يا أُمي
جاء الليل على الأُم قاسياً جداً بما تحمله من همومٍ فوق طاقتها، الزوج عسّكريٌّ في الجيش، ويقف الآن على جبهات القتال، وقد ترك بيته في رعاية رَبٍّ له القدرة وأُم تحت رحمته، وهو الآن غائبٌ في عمله.
الأولاد ثلاثة، أكبرهم في الثامنة من العمر، وأصغرهم في الثالثة، غفوا جميعهم قرب ألعابهم البسيطة لا يعرفون من الدنيا سوى آلام بطونهم إن جاعوا!
فرشتْ الأم المسكينة كعادتها كلّ ليلة لها ولأولاها على الأرض، ثم نقلتهم إلى فراشهم الوحيد المشترك، واحداً تلو الآخر. أطفأت المصباح... تمددت المسكينة في فراشها غارقة في سُهادٍ، لكنّها لم تغفُ حتى اطمأنت على أولادها.

فجأة استيقظ أكبرهم باكياً! ترى من أيقظه الآن؟ هل هو بكاء النسوة حول أمه؟! أم نواحهنّ المرعب...
تلفت الطفل حوله بخوفٍ شديدٍ يتساءل:

عمَّ يكون هذا الجمع حول أُمه المسجاة؟! في وسط هذا الجمع من النسوة الذي يراه للمرة الأولى! لا يعلم المسكين لماذا، أوما الذي يحدث في غرفتهم الوحيدة؟! ولماذا أمه ممددة بينهم؟! ولا لماذا يبكين! أو ما الذي فعلته أمه حتى توسطتهن بهذا الشكل...

لم يسبق لهذا الطفل المسكين أن شاهد ميتاً من قبل! أيقظته الضوضاء والنواح وأيقظه العطش الشديد، وبصوت مبحوحٍ أخذ ينادي:

أُماه... أماه أعطني ماء، أريد ماءً، تلفتت إليه إحدى النسوة، وهي تصيح وتولول، وتنظر إليه بعطفٍ شديدٍ! ثم انفجرت بالبكاء وهي تصيح:

أمك ماتت يا ولدي... لم يفهم المسكين، بل ازداد بكاءً... وأخذ يصيح بصوته الخائف المرتجف: أماه أنا لم أفعل شيئاً، أريد أن أشرب فقط، وجعله الخوف يزداد بكاءً عندما تذكر عقوبتها عند شقاوته، كررَ: أماه... أماه لم أفعل شيئاً، أعطيني ماءً فقط أريد أن أشرب.

عندها حملته إحدى النسوة من جيرانهم إلى بيتها، وسقته الماء ثم وضعته بين أطفالها وهي تقول باكية: سترى أُمك في الصباح يا ولدي لم يعرف المسكين كيف سيرى أمه!

لم يعلم أن الموت غيبها منذ سويعات قليلة.

قال الطفل وهو يفرك عينيه ويتنهنه:

لماذا جميع النسوة باكيات؟ وماذا فعلت أمي؟ لماذا لا أراها تبكي معهن؟!

لم تقوَ المسكينة على الجواب، ولكنّها أجابته بكلماتٍ حزينةٍ متقطعةٍ، وقالت:

نم يا ولدي الآن... وولتْ خارجةً والدموع تتناثر من عينيها، وهي تقول: لك الله يا ولدي أنت أيّها المسكين من سيبكي طيلة عمره... ستنتهي مهمتنا في الصباح وأنت من، من... ولم تستطع أن تكمل كلمتها حتى أجهشت بالبكاء. ولا يعلم سوى الله على ماذا تبكي وماذا أحضر لها هذا الموقف؟ هل فقط على جارتها أم ذكَّرتها المصيبة بمن فقدت من غواليها.

أسرعت الخُطى، فما زالت مهمتها لم تنتهِ، بقي في الغرفة ولد وبنت، يجب أن تنقلهما إلى بيتها قبل أن يستيقظا، وفعلت ما أوجبت عليها عاطفتها وإنسانيتها؛ ثم عادت لتجلس مكانها وتُسقط دموعاً أشد غزارة، تنوح على الأم المسكينة التي صرعها الموت فجأة بعد أن نام أطفالها. ولله في خلقه شؤون.

القصة... شاءت الصدفة أنَّ إحدى جاراتها قرعت باب بيتها آخر السهرة لتخبرها بأنَّ زوجها، أرسل مصروفهم الشهري مع زوجها الذي وصل في تلك الساعة، فهما يخدمان معاً في مكانٍ واحدٍ... وبما أنّها تعلم بحاجة جارتها الماسة إلى المصروف، ولم يكن الوقت متأخراً جداً وإن كانت تعلم بأنَّ الأُم تنام باكراً بغياب زوجها، ساقها الله تلك اللحظة لتقرع الباب... ما أن فتحت المسكينة الباب لجارتها، حتى انهارت ثم سقطت ميتةً...
لقد سخر الله لها في تلك اللحظة هذه المرأة كي تشاهد ميتتها، وتنعيها لجيرانها...

رأى الطفل أمه في الصباح كما وعدته جارته، ولكن عندما أُغلِقَ الصندوق! نُقلت إلى مسقط رأسها... ودُفنتْ ودفن الحنان معها...

****

من قدر الله له رزقاً
يعطي من يشاء ويحرم من يشاء.
رزقكم في السماء وما توعدون.

" بائعُ الفول "

دخلَ يوسف إلى مستودع منزلهم القديم، يبحثُ في مخلفات عائلتهم، لعلّه يجدُ فيه ما يبيعه، ويسدُ به حاجات أهل بيته.

فلم يَعُدْ إنتاجُ عربة الفول التي يدفعها يومياً مسافاتٍ طويلةٍ، يكفي مصاريف أسرته.

كذلك لم يبقَ عنده ما يُستغنى عنه، فقد باع كلّ شيءٍ يمكن الاستغناء عنه.

اليوم يحتاج إلى تأمين بعض المال لابنته لشراء كتاب مدرسيّ، لا يملك من قيمته شيئاً.

فجأة، وجدَ بين المخلفات سِراجاً علاه الصدأ، كان يستعمل في الماضي للإنارة، وقوده من زيت الزيتون أو الشحم الحيواني بعد تذويبه... قلّبه بين يديه، لكنّه رماه على الأرض حين لم يجده يساوي شيئاً.

ولكن الصوت الذي رنَ في أذنيه لحظة اصطدامه بالأرض، دفعه لأن يلتقطه من جديد ويتأمله جيداً.

حدّقَ به وأخذ يتساءل: تُرى هل هو مصنوع من النحاس أم من ماذا؟ رنينه مغري! ثم همس ساخراً وهو يقول: أين لِحظيَ البائس أن يكون مصنوعاً من الذهب؟!!
جلسَ يوسف على الأرض يفكر!!

يقولون: إنَّ جدي كان من كبار أثرياء المدينة في الماضي، لعلَّ وعسى أن يكون هذا الفانوس أثرياً حيث يبدو شكله وكأنّه هكذا.
عندها قرر تنظيفه والكشف عن معدنه، بدأ يحكّه ويدعكه لإزالة الأوساخ العالقة عليه بمرور السنين... وبعينين ذابلتين وفي ظلمةِ المكان، خطرَ له في تلك اللحظة فانوس علاء الدين السحري والمارد المسجون داخله، بدأ النعاس يدغدغُ أجفانه ويتغلب عليه، وهو يتذكر ما قرأ قديماً في قصص ألف ليلةٍ وليلة، وعن علاء الدين وفانوسه السحري... سخر من نفسه عندما أخذ يتصور فانوس علاء الدين والمارد المسحور، خضه بيده بحركة لا شعورية...
سمع خشخشة داخله، رفعه بيده لكي يرميه وقد ساوره بعض الخوف!

لكنّه سخِرَ من نفسه قائلاً:
ربما داخل المصباح بقايا فتيل أو حشرة ميتة، أو غيره...علام أخاف؟ تراجع عن نية رميه، ووضعه بهدوءٍ على الأرض ثم جلس على الأرض يتثاءب وينظر إليه، ويتهيأ خروج ما توقع من داخله... وكانت المفاجأة التي أرعبته حقاً وأصابته بالذهول الشديد، وارتجف منها قلبه، وتدلى لعابه من فمه، وأوشكت أن تفقده عقله!
ظهرت أمامه سحابة من الدخان الأبيض، تخرج من فوهة المصباح ثم ترتفع إلى الأعلى ببطء، ثم بدأ الدخان يتبدل ويتحول ويتجسد إلى ما يشبه صورة إنسانٍ ضخمَ الجثةِ، أو عملاق
وها هو قد وصل رأسه إلى سقف المستودع العالي... سقط المسكين على الأرض من الخوف! ولم يستفِقْ سوى على صوت المارد وهو يقول: (شبيك لبيك عبدك بين إيديك) اطلبْ تُطاعْ...
ظلَّ الرجل دقيقة حابساً أنفاسه قبل أن يستطيع الكلام، ويستجمع رباطة جأشه قليلاً! أخيراً تكلم وقال وهو يرتجف:
_ من أنت؟ وماذا تريد مني؟

_ أنا عبد من يحوي هذا الفانوس، اطلب ما تريد.

_ أريد مبلغاً لأشتري كتاباً لابنتي.

اختفى المارد... ولكنّ الرجل وجد أمامه مبلغاً زهيداً بقدر قيمة الكتاب، ولفرط سروره ترك الفانوس على الأرض وحمل المبلغ وذهب واشترى الكتاب لابنته. انتهى هول المفاجأة وعاد إليه هدوؤه وخف رعبه، ساعة إذٍ أخذ يلوم نفسه ويقول بعد أن اشترى الكتاب لابنته:

ما أغباني! ليتني طلبتُ ما يغنيني مرة واحدة، لعلّه يبعدني عن السير وراء عربة الفول، ولكن الفانوس ما زال عندي... سأطلب في المرة القادمة من المارد ما أشاء.

عاد يوسف إلى البيت يحمل كتاب ابنته، ثم دخل من فوره إلى المستودع ثانية.

وجد المصباح باقياً في مكانه، ولشدة لهفته... دعكه بانفعالٍ، فخرج المارد يصيح به غاضباً، أو هكذا تراءى له، وكأنَّ المارد عارف بحاله، فقال له: أنتَ من طلبتَ القليل، ماذا تريد الآن؟ فقال له: أريد قصراً أعيش فيه أنا وأسرتي، وخلال ثوانٍ كانت الأسرة في قصرٍ فخمٍ.

حكَ المصباح من جديد، وحقق المصباح طلباته فيما

أراد... ملّكه شركات ضخمة وعقارات واسعة، وبدأ يعيش حياةً رغيدة.
مرت على يوسف سنيناً كثيرة في رغدٍ وسعة.

نظر في المرآة يوماً، فوجد أن الشيب بدأ يعبث برأسه ونَخُلَ جسمه وتغضن وجهه.
عاد إلى فانوسه المسحور... دعكه...
ظهر العملاق كما فعل قبل أكثر من ربع قرنٍ.

_ أيها المارد كما ترى لقد غزاني الشيب والضعف! _ ماذا تريد الآن؟
_أريدك أن تعيد لي شبابي.
_ أمر مولاي...انظر إلى نفسك!

_ يا الله ماذا فعلت بي؟ أعدتني إلى أيام عربة الفول! أين القصر أين الثروات؟ أين الشركات والسيارات التي أملكها؟

_ أنت من طلبت...الوداع انتهت مهمتي.
استيقظ يوسف على صوت سقوط الفانوس من بين يديه بعد أن ارتختا حين غزاه النوم.

فتح عينيه. فوجد نفسه ما زال جالساً على الأرض ووجهه نحو الفانوس الصدئ، الذي سقط على الأرض، والصراصير تخرج من فوهته.

عاد إلى عربته يدفعها ويصيح ساخراً:

(علاء الدين يا فول).

****

لسانك حصانك إن صنته صانك،
لا يعلم سوى الله كم تعيش ومتى
ينقضي الأجل ...

" كلمةُ حق "

دخلَ مريض إلى عيادة أحد أطباء العيون في إحدى المستشفيات العامة، في إحدى الدول العربية.
ودار بين الطبيب والمريض الحديث التالي:
_ مم تشكو يا أخي؟
_ من مَدٍّ في بصري! وأريدُ الاطمئنان على مستقبل نظري، أيضاً قيل لي:

أنَّ ظفراً أيضاً يتطور في عيني، وربما يحتاج إلى جراحة مستقبلاً! تأمل الطبيب مريضه... ثم قال بشكلٍ مفاجئ:
_ كم عمرك؟
_ خمسة وأربعون عاماً.
سكت الطبيب لحظات ثم قال:
_وكم تظن أنّك ستعيش بعدها؟
كان المريض أكثر دهاءً من الطبيب فقال متهكماً: _ لم أفتح السجلات بعد... لذلك لن أفيدك بما لم يُعلمني الله بإرادته! أما واقع الحال عمري الآن خمسة وأربعون عاماً، وأفكر أن أعيش حتى مئة عام، هل لديك ما يمنع؟ تلعثم

الطبيب وأشار إلى المريض إشارة فهم منها أن يجلس أمام جهاز فحص النظر، بعد أن كست تقاطيع وجه الطبيب إمارات الخجل والإحراج، ثم أخذ يعاين مريضه بعناية شديدة.

_ ماذا تبين لك يا دكتور إذا سمحت؟

وبحركة خجولة أخرج الطبيب بطاقة من جيب قميصه، ثم وقع عليها وقال:

هذه البطاقة هدية لك... تمنحك حسماً على مشترياتك بنسبة خمس وأربعين بالمئة في أي مركز نظارات من التي أملكها، والمنتشرة في أرجاء المدينة.

وصافح مريضه، وودعه متمنياً له السلامة... ما أن فتح المريض الباب، وهمَّ بالخروج وهو يقول: _ سيدي الطبيب، لم تقل ماذا تكَشّفَ لك من خلال فحصك لعينيّ؟ لم تقل لي!

_ نعم أنتَ مريضٌ فعلاً لكن مرضك فقط بقلة احترامي، وليس لديك مرض بعينيك، وأعتذر منك اطمئن يا أخي حالتك جيدة جداً.

ولكن أنا من يحتاج إلى علاج يضبط لساني.

إذا كان القضاء بخير...البلد بخير.
وإذا دخلت هدية القاضي من الشباك
هرب العدل من الباب.

" ملف البراءة "

دعتْ المحامية صديقها المحامي لزيارتها، والتشاور معه في قضية والدها المتهم بجميع أنواع الفساد الإداري، من رشوة وتزييف وسرقات...الخ.

_ أودُ منك تقديم خدمة ضرورية.

_ تفضلي أنا تحت أمرك.

_ أنت تعرف قضية والدي التي أحيل إلى القضاء بسببها، وما اتهم به.

تبسم الأستاذ المحامي وقال وعلى وجهه إمارات الاهتمام:

_ نعم أذكر ذلك، لقد عرض عليَّ الدفاع عنه، ولكنّني رفضتُ لأنّ القضية واضحة لا لبس فيها، وشهادة الشهود أدانته، صحيحٌ لم يقبض عليه بالجرم المشهود، إنَّما شهادة أمين المستودع والسائق وغيرهم، أقروا أنّهم شاهدوه أكثر من مرة يخرج بضائع بصفته المدير العام دون موافقتهم، وهم من قاموا بالتبليغ عنه، وكذلك بعض زبائنه الذين

قبض عليهم وقبض منهم رشاوٍ، أو اشتروا منه بضائع القطاع العام، اعترفوا بذلك.

_ نعم... صحيح... لكن بعد أيام جلسة النطق بالحكم، ولا يمكن إعادة النظر في القضية إلّا بدليلٍ قطعيّ على البراءة.

_ طبعاً كلّ هذا معروف... لكن هل لديكِ الدليل القاطع؟

_ نعم... هذا الدليل ليس قاطعاً فحسب، بل هو من سيحسم الأمر.

_ دعينا نرى ولكن تأخرت بتقديمه... ماذا لوحصل لك عائق منعك من تقديمه؟

_ لقد عثرت على الدليل الليلة الماضية فقط.

_ حسن وما هو؟

ناولته إضبارة سميكة من الأوراق كي يطّلع عليها، أخذها وبدأ يقلّبُ الأوراق فيها وهو يردد:

_ لاشيء... لاشيء... لكنّه توقف عند ورقة ونظر إلى زميلته مستغرباً، ثم تبسم وقال:

_ وهل تعتقدين أنّك لن تقعي في فضيحة تمس كرامتك وشرفك؟ وهل تظنين أن نقابة المحامين لن تطردك إلى الأبد من المهنة؟ وعليه تخسرين مستقبلك.

_ لاشيء سيحدث مما تقوله...تأكد.

_ يستر الله... وما المطلوب مني؟ لعلمك أنا لن أدخل معك في اللعبة الخطيرة هذه.

_ ومن قال لك إني سأشركك؟! كل ما أطلبه منك حين أترافع أمام القاضي، أن تلفت نظره بنظراتك المشفقة عليّ عندما أتكلم.

_ هههه... أمر بسيط، وإن لم أفهم الفائدة من هذا التصرف ولا أريد أن أفهم.

_ يستحسن ألّا تفهم، المهم من الضرورة أن تكون جالساً في المقعد الأول قربي أثناء جلسة النطق بالحكم.

_ حاضر... اتفقنا.

بدأت الجلسة، ضرب القاضي بمطرقته على طاولته، ووقف الجميع احتراماً لهيبة المحكمة... أمرهم بالجلوس، ثم

أمسك بملف القضية وبدأ يقرأ الحكم، لكن الأستاذة ابنة المتهم رفعت يدها ونادت بصوت عالٍ:

_ سيدي القاضي... انتظر... المتهم بريء من كلّ ما نسب إليه ولدي الدليل القاطع!

سيدي القاضي... مازالتْ الفرصة متاحة لبراءة متهم قبل أن تحكم عليه بالسجن والشغل، ربما لسنواتٍ طويلةٍ، وكون الرجل بريء لن تنسَه إذا ظُلِمَ، والأمر سيقضُ مضجعك حين تُدخله إلى السجن، انظر إلى القفص إلى ذاك الكهل الذي تعلق مصيره بين شفتيك...

_ لماذا لم تقدمي الدليل من قبل؟ أنت محامية ولا تجهلين أصول المرافعات القضائية!

_ نعم يا سيدي... لأنّني لم أعثر على هذا الدليل سوى الليلة الماضية، ثم رفعت ملفاً إلى الأعلى واستدارت به كي يشاهده الحضور، بينما زميلها ينقل نظراته بينها وبين القاضي بنظراتٍ ملؤها الشفقة والحزن.
بدأتْ مطرقة القاضي تدق بهدوءٍ شديدٍ، كاد أن يكون ارتجافاً، ثم ضربها بعنفٍ... أخرست الهمهمات والوسوسات

التي تصدر عن الجمهور القلِق! ثم قال:
_ هاتي دليلكِ، وأنت تعلمين المسؤولية التي ستقع عليكِ إن كان القصد تعطيل سير المحكمة، وبالتالي تعطيل سير العدالة.
_ نعم ياسيدي أعلم ذلك، وسترى بنفسك تلك الوثائق وجدّيتها، لكن يا سيدي أرجوك أن تقبل ألّا يطلع عليها سواك، فالقضية ستمس شرفي وكرامتي ولن أرى النور بعدها، إما السجن وإما الانتحار!

نظر القاضي يميناً ويساراً إلى مساعديه، ثم سألهما إن كان يفي بالغرض اطّلاعه وحده على الوثائق نظراً للأهمية.
هزا برأسيهما بالموافقة، قال لها:
_ تقدمي وهاتيهم بيدك.

أمسك القاضي بالملف ووضعه أمام عينيه بحيث لايراه مساعداه، ثم بدأ يتفحصه ورقة ورقة وهو يكاد يسخر من محتواه... فجأة تبدلت قسمات وجهه وعلاها الاضطراب، وبقي نظره مركزاًعلى الصفحة التي أمامه!
ظل على هذه الحال دقائق، والجمهور يحتبس أنفاسه أيضاً، أما هي أنقذتها مطرقة القاضي من السقوط على الأرض

والإغماء حين أمر الجميع بالوقوف لتلاوة الحكم.
_ ثبتت لدينا بالوثائق الدامغة براءة المتهم مما نسب إليه، ويخلى سبيله فوراً من المحكمة.

أما الوثيقة التي تثبت للمتهم البراءة... (كانت عبارة عن ورقة كُتِبَ فيها التنازل عن ملكية عمارة من ممتلكات المتهم الكثيرة!!).
بعد الضجة التي قامت للحظات في قاعة المحكمة من التهاني ومناداة البعض: يحيا العدل. ضرب القاضي بمطرقته وأسكت الجميع.
وقفت ابنته المحامية، وقبل أن تذهب نحو القفص تبارك لوالدها...رفعت يدها تطلب الإذن بالكلام:

_ سيدي القاضي... أرجو أن تعيد لي الملف كاملاً.

_ الملف أصبح من ممتلكات المحكمة وسيحفظ مع أوراق القضية.

_ سيدي أنت وافقت على الاطلاع عليه لتثبت براءة المتهم فقط، أرجو إعادته لي كما هو.

وتقدمت نحو القاضي الذي جحظت عيناه وهو ينظر إليها مذهولاً! في اللحظة نفسها التي لامست يدها الملف أفلت من يده وهوى القاضي نحو الأرض ميتاً...

كان مساعده ينظر باهتمام لها وهي تتقدم نحو رئيس المحكمة، مد يده بسرعة البرق ليتلقاه أي للقاضي، فلامست يده الملف.

فما كان منه إلا أن سحبه بسرعة بيد، وباليد الأخرى سند القاضي محاولاً منعه من السقوط ولكن القدر لا ينتظر!

خرجت روح قاضي الأرض وانتقلت إلى قاضي السماء.

قبل أن ينظر مساعد القاضي في الملف، نظر نحو القفص حيث يقبع فيه المتهم الذي ينتظر بفارغ الصبر خروجه منه.

وقرع المنصة بمطرقته وقال:

_ لم يتسنّ للمرحوم رئيس المحكمة السابق التوقيع على قرار البراءة بسبب وفاته المفاجئة...

لذلك تؤجل الجلسة، ويبقى كلّ شيء على ما هو عليه الآن، ريثما يُبت فيه أثناء الجلسة القادمة لتأكيد الحكم النهائي!!! ويوضع الملف مع إضبارة الدعوى لعرضه على الرئيس الجديد المؤقت الذي هو أنا...

****

أخوك من صَدَقَك وليس من صَدَّقَك

رب أخ لم تلده أمك

إنه يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء

" الطالبُ والراقصة "

تراقبُ الداخلين بعينين ثاقبتين، وتطلق عليهم نظرات شهوانية تتصنع حرارتها، دخل شاب صغير في السن، أوحى منظره لها بأنّها وقعت على صيدٍ ثمين، كيف لا، وقد دخل إلى هذا المكان الترفيهي الباهظ الأسعار! فهذا يعني لها أن الفتى لديه قدرة مالية جيدة تمكنه من مجالستها ودفع فاتورة الحساب...

من الطبيعي عليها الآن أن تستقبله وترحب به فمهمتها... انتظاره، وانتظار أمثاله من الميسورين، هذا عملها هنا في هذا الملهى...اصطياد الزبائن ومجالستهم... كغيرها من بنات الليل العاملات في مثل تلك الأماكن.

بدأ الشاب يوزع ابتساماته دون تحديدٍ لأيّ منهنَّ بعد أن جلس بمفرده على إحدى الطاولات، وأحذ يلتف برأسه نحو جميع حسناوات الملهى، والناظر إليه يؤكد سذاجته وبساطته، ولا عجب فالكثير من أمثاله يرتادون هذا المكان.

أما ما الذي جاء به إلى هنا؟ فهذا ما لا نعلمه حتى الآن،

إلا أنّه يحاول أن يبدي للجميع أنّه من المعتادين على السهر في مثل تلك الأماكن الفخمة! غمزته الحسناء ثم أدارت وجهها نحو المرقص، فهم الشاب بأنّها تدعوه إلى الرقص معها...

نظر إلى المسرح الذي يغصُّ بالراقصين والراقصات، وقد بانَ على وجهه بعض الاضطراب، إلّا أنّه هبَّ واقفاً من مقعده نحوها على عجلٍ، مما جعل ركبته تصدم الطاولة من الأسفل، فأخذت تتأرجح، وكاد أن يتهاوى كلّ ماعليها... بدأ الشاب يلمّلمُ ما أمكن إلّا أنَّ الحسناء أسرعت إليه وأمسكت بيده: كلا هذه أول مرة أدخل إلى مثل هذه الأماكن!

_ إذاً لماذا قمت بتلك السرعة؟

_ لقد تفاجأت بدعوتك! وستعلمينني...
_ حسنٌ هيا سأعلمك...
وبدءا بالرقص.

_ ماهذا؟ أنت ترقص جيداً...
_ أنتِ ترفعين معنوياتي، ولكن لم أرقص من قبل في هذه

الأماكن.

_ المهم ما الذي جاء بك إلى هنا؟

_ الملل ياسيدتي وبت أكره الجامعة والدراسة.

_ إذاً أنت طالب جامعي. أليس كذلك؟

_ نعم يا سيدتي... ولكن المستقبل المجهول بعد التخرج هو ما أتى بي إلى هنا.

_ أفهمكَ أيّها الشاب ولكن لا عليك، ثم صفقت بيديها ونادت:

_ أيّها النادل ضع زجاجة ويسكي كاملة هنا على الطاولة.

_ ولكن هل تتوقعين من طالبٍ يعيش على مساعدات أهله أن يدفع ثمن زجاجة كاملة؟

_ إذاً لماذا جئت إلى هنا وأنت تعلم أن ليس معك نقود أو أنّها لا تكفي.

تبسم ساخراً...وأخرج من جيبه ورقة واحدة! ضحكت، ودفعته عنها بلطف قائلة:

_ وما الذي تحلم أن تحققه بهذه الورقة؟! أخذتها من يده وبدأت تفركها بين أصابعها
ثم أعادتها له...
_ الحقيقة أفكر أن أعيش ليلة كنت أحلم بها، وبعدها لن أعدم مكاناً ألجأ إليه حتى ولو في السجن.

- لا تحزن ستعيش هذه الليلة على حسابي لا تخف، ولكن ضمن شرط.

_ موافق سلفاً، ولن أسمع شرطك... أنت فقط أُؤمري، وأنا أنفذ.

_ نعم ولكن هل ستتقيد بشرطي مهما كان الثمن؟ تعهدَ لها بشرفه وبكلِّ قيمه و و... بأنّه سينفذُ أوامرها مهما كانت.
وبدأ يهمس لنفسه:

_ ماذا سيكون مطلبها أكثر من أن تكتب ورقة عليَّ بدفع المبلغ؟ لا يهم سأماطل حينها... وهي عرفت ظروفي! وتعلم سلفاً قدرتي المفلسة، سأراوغ وليكن ما يكون...
قالت له:

لقد أخذت منك وعداً كرجل أليس كذلك؟

أجاب بنعم.
غابت قليلاً ثم عادت وصاحت بالنادل:

أين الزجاجة؟ وعلى الفور أحضر لهما زجاجة كبيرة. سكبت له، وسكب لها، وشرب، وشربت، لكنّها كانت تتظاهر بالشرب بينما هي في الواقع كانت أحياناً تدلق كأسها في سطل للزريعة بجانبها، ثم طلبت زجاجة أخرى، أتبعتها بعشاءٍ بسيطٍ وبعدها جاء النادل بفاتورة الحساب.

عندما استلم الطالب الفاتورة كاد أن يغشى عليه من أرقامها الخيالية، غير المتوقعة، ولكنّه تورط... حصل ما توقع... أعطته قلماً وطلبت منه التوقيع على الفاتورة... لم يمانع فقد وعد بذلك.
وأصبح ملكاً لها كما طلبت.

بدأتْ محاولاته في التقرب الزائد نحوها وفهمت مبتغاه، لاطفته قائلة:

هذا المكان ليس لأكثر مما ترى، لا يباح فيه سوى الرقص، والخمر، ومجالسة النساء فقط، وما تبحث عنه سأدلك

عليه بعد قليل.
اعتذرت لدقائق، ولكن تفكيرها شُغل بأمر هذا الشاب.

بدأت تحادث نفسها:

صحيحٌ أنّني خرجتُ من عالم المجتمعات السويّة، ولا مغفرة لي من مخلوق في الدنيا، أما في الآخرة فما زال الطريق أمامي مفتوحاً لها.

لقد تورط معي الكثيرون، ولكنّهم كانوا متمرسين من قبل، أما هذا المسكين فقد أصبح الآن مستقبله بين يدي، فهو جديد على دخول تلك الأماكن، إن سلمته للإدارة ستسجنه حتماً ويلفقون له تهماً كثيرة!

بعد هذا الهاجس استقرت على رأي، لكن كيف ستنقذه من هذا الموقف؟ وبعدها من تلك المواخير؟

هذا ماكان عليها أن تفكر به جدياً، فقد أشفقت عليه وعلى مستقبله من هذا العبث، خاصة وأنّها رأت فيه خامة سهلة الفساد... وهو أول مرة يأتي إلى هنا، ثم هو لا يملك شيئاً يُطمع فيه.
أخذ الشاب يناجي نفسه:

_ لقد كنت أرى سكارى في كلّ مكان، أما أنا لماذا لم أسكر؟! زجاجتان شربناها معاً وما زلت في وعيي كما دخلت! ثم ما غرضها من هذه الدعوة على نفقتها؟ وما الذي ستستخدمني فيه؟ لماذا أنا بالذات؟ الصالة مليئة بمن يلبس أفضل من ثيابي ومن ينثر النقود على الراقصات، ما أتمنى أن يكون في جيبي ورقة واحدة منها! أسئلة كثيرة جعلته يتعمق بالتفكير بما هو فيه...
عادت الراقصة إليه، وعملها في هذه اللحظة ليس عمل راقصة متمرسة تبحث عن سبيل لعيشها في أرذل الأماكن!

قالت له: اسمع يا أخي... جفل قليلاً حين سمع كلمة أخي، أنت تعلم بأنّك لا تملك شيئاً... وأنّ العودة إلى هنا مستحيلة، خاصة أنّك مدين لي وللملهى بمبلغ كبير جداً ولن تستطع السداد.

أما أنا فقد سامحتك بحقي! ولكن صاحب المكان سيرميك في السجن، ولا ولن يسامح أبداً، ومتابعتك في هذا الطريق ستجرك إلى الكثير من المشاكل.

ستخسر أهلك وتخسر مستقبلك... أنا قررت أن أساعدك على الهرب... أرجو ألا تفكر بالرجوع إلى هنا أو لمثل هذه الأماكن... هيا تعال معي... أوصلته إلى الخارج من باب للطوارئ، وقالت لنفسها:

لقد أشفقت على هذا المسكين لعلَّ الله يشفق عليَّ مما أنا فيه... أما الويسكي فهو ماء مُنَكّه ببعض الويسكي، والعشاء بسيط سأتحمله وحدي، والفاتورة ورقة لاعلاقة للمحل بها...

لقد أخبرت صاحب الملهى بأنّ الشاب لا يملك شيئاً وقد نقع في ورطة معه، وقيدت فاتورة الشاب على حسابي

****

القمار سوسة تنخر العقل،
تدمر الجسد،
وتُذهِب العقل والبركة والإيمان.

" المقامر "

شعرَ الأبُ بدنوِ أجله، لذلك طلب رؤية جميع أولاده فقسَّمَ تعبَ عمره بين أولاده قبل أن يتولاه خالقه...أخيراً جاءه الحق... ماتَ والدهم وهو يوصيهم بتقوى الله ومحبة بعضهم، والابتعاد عما يغضب ربهم.

نعم، اقتسموا ثروته وكلّ واحدٍ منهم اتجه لعملٍ يرغبه، بعد أن أخذ كلّ واحدٍ منهم حصته...
وتشاء الأقدار أن يجره رفقاء السوء إلى الطريق المسدود... نعم غيّر الأخ الصغير ما تربى عليه أثناء حياة والده، وكما قلنا شده رفقاء السوء إلى القمار، ما أدى إلى فشل مشاريعه وأصبحت خسائره المتوالية بتجارته مستمرة.
لقد اتبعَ إحدى أسوأ المهن في التاريخ وهي القمار؛ خسرَ أمواله وخسرَ بيته وتفككَتْ أسرته الصغيرة...

طلقَتْ زوجته نفسها وأخذتْ صغارها معها، وبقي هو مشتتاً بين المواخير وطاولات القمار. وفي أحد الأيام وقبل

طلوع الفجر بقليل، وعلى مائدة القمار التي اعتاد الجلوس خلفها...

كان قد خسر كلَّ ما لديه وبقي بيته، فلعب عليه... وخسره، وهنا تبدأ قصتنا: طلب من صديقه على الطاولة بعض المال ليتابع اللعب... لكنَّ صديقه رفضَ أنْ يعطيه شيئاً ودار بينهما الحوار التالي:

_ أنتَ لستَ غبياً... في القمار لا تجوز السلفة على الطاولة.

_ لماذا؟ إن ربحت سأسدد لك دينك.

_ هل أنتَ غبي؟ ممن ستربح؟ أسلفك لأخسر نقودي وتربحهم أنت، اذهب وتدبر أمرك:

وبعدها تعالَ والعبْ واربحْ ما شئت.

_ من سيعطيني الآن؟ لقد سلبتني مالي كله، سلفني القليل.

_ ألا تشعر بأنّك ساذج؟! ماذا لوحالفك الحظ، اذهبْ واستلف ثم تعالَ كي ألاعبك...

تطور الأمر بينهما، تشابكا بالأيدي، هدده الخصم بمسدسه، لكنَّ الشابَ استطاعَ بقوته البدنية أن يلوي قبضة الرجل الخمسيني، بعد أن تراخت يده بشكلٍ عجيبٍ، عندها وجّه يد خصمه التي تحمل المسدس نحوه، وفي اللحظة نفسها سحبَ المسدس بسرعةٍ من يده، وكانت أصبع الخصم على الزناد فعلقت به بسبب سحبه له بسرعة... انطلقت الرصاصة واخترقت صدر الخصم... استيقظ باقي الأصدقاء أو بالأحرى الشلة... فرفقة القمار لا دين لها... الذين كانوا في عالمٍ آخرٍ، عالمٌ بعيدٌ عن الواقع... عالمُ السعادةِ الموهومة عالمُ السُكرِ، والمخدرات.

إلّا أن صاحبنا لم يجد ما يعيقه عن الفرار، انتشل ملء قبضته من أموال القتيل عن الطاولة ودسها في جيبه... لحظات وكان في الشارع، ثم بعدها في قبو لإحدى العمارات المجاورة قيد التشطيب، هذه المرة لم يتخلَّ الحظ عنه... لم يجد هناك الحارس.

دخل تلك العمارة الكبيرة والتي تمتلئ يومياً بعشرات العمال، وكان الوقت مبكراً جداً دون أن يراه أحد ما.

بقي عدة أيام يراقب الحارس... كلما غاب الحارس يخرج ويشتري طعامه مما لديه من أموال خطفها من طاولة القمار.
طبعاً أكثر ما كان يقلقه أن يُكتشف أمره، لكن هذه العمارة كانت في مرحلة التشطيب، لذلك حتماً سيدخل إليها ويخرج منها المئات من أصحاب المهن، وكان يمضي نهاره بين العمال يدعي مهنة غير مهنة محدثه...

وفي إحدى الليالي انتظر حتى ذهب الحارس برهة، وجلس مكانه...
تفاجأ الحارس به حين عاد وسأله:

_ ماذا تفعل هنا؟

أجاب ممازحاً:

_ استبدلوك يا أخي أنت تتغيب كثيراً عن عملك. _ لكن من أنت؟ وماذا تعمل هنا؟

_ كنت ماراً وأردت أن أرتاح قليلاً على كرسيك عندما وجدته خالياً.

_ لكن ما عملك؟

_ أنا أبحث عن عملٍ.

_ بالتحديد ماذا تتقن من أعمال؟

_ عامل عادي ليس أكثر.

_ حسناً ما رأيك أن تعمل معي؟

_ وما العمل؟

_ عملٌ مريح... نتقاسم هذا الكرسي. تحرس أنتَ بعد الغروب حتى الصباح وأستلم منك بقية اليوم

_ جميلٌ جداً وهذا ما أبحث عنه، ولكن شرطي الوحيد أن أنامَ في العمارة في النهار فأنا من خارج المدينة ولا أستطيع أن أدفع أجر غرفة.

_ لك هذا.

دام حال الرجلين أكثر من سنة، ولم يكتشف أيّ شخص هذا التبادل.

كان يتقصى الأخبار يومياً، من خلال عمال الإكساء في العمارة... علم أن القصة انتشرت بين الناس في حينها،

وتكاد أن تكون نسيت اليوم، أما أخوته فلم يتركوا مكاناً لم يسألوا عنه...

والشلة التي كان يسهر معها منهم من سجن ومنهم من اختفى، أما موضوع القضاء والحكم عليه غيابياً فلم يذكره له أحد.

كانت قد طالت لحيته ولبس ثياباً تشبه ثياب الحارس الحقيقي... ينام في النهار ثم يستلم مكان الحارس الذي يذهب إلى عائلته ويعود فجراً... وفي أحد الأيام انتبه الحارس لحركة غريبة حدثت عندما دخل شرطي يسأل عن عنوان شخص ما، فيبدو أنّه ظنه يبحث عنه فترك كلّ شيء واختفى داخل العمارة.

سأله الحارس:

_ ما الذي تخفيه؟ أصبحت الآن قلقاً منك بسبب تصرفك هذا... لكن لا تخف ولن ينالك من ورائي أذىً فقد جربتك عاماً كاملاً.

_ منذ أيام سُئلتُ عن هاربٍ له صفاتك، واليوم رأيتكَ تفرُ من أمام الشرطي!

_ ممن سئُلت؟

_ من شاب أنيق، وقبل ذلك من مجموعة من الأشخاص، لكنّي تظاهرتُ بعدم معرفتك كيلا أخسرك.

_ سأخبرك الحقيقة، لقد مللت حياة الخوف والتشرد.

_ لا يهمني ماذا فعلت، ولكن أخشى أن أتهم بأنّني أتسترُ عليك. وربما تكون الشرطة تبحث عنك.

_ لا تخف لقد قررت أن أسلم نفسي وليحدث ما يريد الله.

_ ولكن ألا تخاف من العقوبة التي قد تصل بك إلى المؤبد أو الإعدام على تلك الجريمة؟

_ كلا أنا الآن في سجن مرعب... هنا أموت كلّ يوم عشرات المرات.

_ إن كنت مصراً فلا تخف سأساعدك وأكلف محامياً يدافع عنك.

_ احفظ نقودك، فأنا أعلم الناس بحالك... أصرفهم على بيتك أفضل من أن تدفعهم بقضية خاسرة فسأعترف بكلّ شيء... الوداع...

دخل الشاب إلى المخفر بعد أن قرر تسليم نفسه:

_ ماذا تريد أيّها الشاب؟
_ أنا هاربٌ من العدالة ومطلوب بجريمة قتل منذ زمن.

ظنه الشرطي يمزح وله معاملة متأخرة في المخفر يسخر منه بسببها!

_ هات من الآخر إذا سمحت.

_ أقول لك الحقيقة.
أمسكه الشرطي وأدخله إلى المسؤول المختص.

_ أعطني بطاقتك الشخصية.
بحث في السجلات، لم يجد شيئاً فقال له:

_ انفخ في وجهي بسرعة.

وقرب وجهه نحوه... وبعد أن اشتمَ رائحة فمه وقال:

_ أرى أنّك لست مخموراً، ولا يبدو عليك الجنون أيضاً، قل لي الحقيقة لماذا جئت إلى هنا؟
_ لقد قلت الحقيقة يا سيدي...أطلقت النار على رجل كنت ألاعبه القمار.
_ هل تعرف اسمه؟

_ نعم... ثم أعطاه اسمه الكامل، وعمره حوالي الخمسين عاماً.

دخل الشرطي من جديد إلى غرفة السجلات ثم عاد بعد قليل.

_ اذهب يا أخي، فعلاً حدثت وفاة الرجل ووجد أثر طلقة اخترقت صدره، ولم يشاهد أثار عنف أو نزف للدماء أو أي شيء آخر. ثم أخرج ورقة من الملف وقال:

- اسمع ماذا كتب الطبيب الشرعي في تقريره...

الوفاة كانت ناتجة عن نوبة قلبية، ولا علاقة للرصاصة التي اخترقت صدره بموته، وقد تم إطلاق النار عليه بعد وفاته، أي أنّك أطلقتَ النار على جثة، وهذه لا تعتبر جريمة قتل ولا يحاسب عليها القانون. اذهب وتوكل على الله. فقد أنقذك حظك والصدفة قبل أن أكتب اعترافاً منك بممارسة لعب القمار... هيا أخرج من هنا..

****

من لا خير فيه لأهله...
لا خير فيه للناس.
ومن يجحد المعروف...
لا عهد له ولا دين

" يقظةُ ضمير "

قصتنا هذه تتطابق مع المثل الشعبي أدناه:
(ضع أصبعك في عينك كما تؤلمك ستؤلم غيرك).
بدأ في لومِ نفسه وهو يقود والدته ليضعها في دارٍ للرعاية، يحاول تبرير فعلته بأنّ الخلافات بين والدته وبين زوجته أجبرته على هذا الفعل المشين، وكي يرتاح هو أيضاً من خلافاتهما التي انعكست على راحة فكره، وأدت إلى تقصير زوجته بأمور البيت.
توقف قليلاً... نظر إلى حيث سيودع أمه، وأخذ يناجي نفسه بحرقة: أماه... هل تعذرينني؟ أماه... لا يقدر سوى الله على خلافات الزوجات والحموات.
بينما أتون الذكريات يغلي في ذاكرته بعد أن أيقظ ضميره لهيب فعلته الشنيعة! ها هو أمام دارٍ للمسنين، بعد أن أغضب ربه.
نعم أمه حياته، التي لولاها ماعرف الدنيا ولا تكوَّن جسده ولا أصبح رجلاً يملأ ثيابه! صحيح إن الله وهبه الروح، ولامنَّة لأحد في ذلك، ولكن أمه هي من أودعته

في هذه الدنيا... هل يرد الجميل هكذا؟!!

أودعها هناك وعاد إلى بيته ومرجل غضبه يغلي ويفور، بحث عن مفتاح بيته في جيبه؛ لم يجده كان لا بد له من قرع الباب، وهو يتحاشى أن يرى زوجته ويتحاشى سؤالها عن أمه، ولا يريد أن يراها باسمة شامتة، وهو يعلم سلفاً مدى فرحتها بالتخلص من حماتها، لكن للضرورة أحكام فلا بد من قرع الباب بعد ترددٍ فاق صبره.

استقبلته بضحكة: طوقت عنقه بذراعيها، ولكن برودة الثلج لم تصل إلى برودة عاطفته تلك اللحظة أمامها!

لم تأبه الزوجة المنتصرة لتصرفه، فقد أحست بألم زوجها الذي ضحى بأمه لأجلها! فقط لإرضائها، أما هو فقد فكَ يديها عن عنقه، بحركةٍ هادئةٍ، وقلبه لا يعكس حقيقة موقفه.

وقال لها: هيّا يا أمة الله، البسي ثيابك بسرعة. هيّا...

_ ولمَ ياحبيبي؟

_ نريد زيارة أمك الآن.

_ يا إلهي! ومنذ متى تشتاق لزيارتها؟!

_ منذ اليوم.

_ الحق معك ياحبيبي، الآن أصبحت أُمي في مقام أُمك.

_ يكفي، هيّا لا تضيعي الوقت. إنّ أمي الآن حزينة جداً هناك.

_ تريدنا أن نزور أُمَك؟؟ وهل اشتقت إليها فوراً! ألم نتفق على أن نزورها كلّ أسبوع مرة، وفي أيام العطل فقط.

_ نعم، ولكن الآن لا بد من زيارة أمك.

_ حاضر يا حبيبي، هيّا نذهب بثيابي هذه، ذاك بيت أُمي ولا حرج فيما ألبس.

وصلا إلى بيت حماته التي استقبلته بترحيب فاق المعهود... تلقت الخبر فوراً من ابنتها.

بدأها بالحديث:

_ جهزي نفسك يا حماتي لترافقينا.

_ إلى أين يا ولدي؟

_ لتؤنسي وحدة أمي في دار الرعاية.

_ ماذا؟!! وهل اشتقت لرؤيتها على الفور؟

_ كلا ليس هذا، إنّها هي من اشتاقت لجلوسك معها.

_ ماذا تقول يا ولدي؟

_ أقول ستقيمين معها هناك، وهل يزعجك هذا؟

_ يا إلهي... هل جننت يا ولدي؟

_ كلا لم أجن... ولكنّني عقلت، واهتديت.

_ ما هذا الكلام الغريب يا ولدي؟؟!

_ الغريب أن أودع أمي هناك إرضاء لابنتك، وأتركك هنا.

وبما أنّه من المستحيل أن تقيمي مع أمي اسمعي هذا سيدتي:

_ أنت أمام حَلَّين لا ثالث لهما... إما أن تستقبلي ابنتك مقيمة، ومطلقة في بيتك! وإما أن أستقبلها زوجة مع أمي في بيتي ولكما الخيار...

وأدار ظهره خارجاً.

ولم يكد يهم بفتح الباب، حتى تشبثت به زوجته قائلة:

_ هيا نذهب إلى أمك نعيدها إلى بيتنا معززة مكرمة.

لم يمهلها حتى تتم كلامها حتى قال:

_ لدي شرط آخر، ألّا تتدخل أمك في حياتنا مرة أخرى.

وكان ما أراد...

****

العلم في الصغر

كالنقش على الحجر.

بئس من حارب طالب علم

" أُم محمد "

في الستينيات من القرن الماضي، كانت توجد مكتبة صغيرة تقابل قلعة دمشق، أمام سوق الحميدية إلى الشمال قليلاً، تلك المكتبة كانت تؤجر قصصاً قصيرة مثل روايات الجيب وروايات الهلال، والمختار من ردرزدايسجت...إلخ.

كانت هواية الفتى استئجار تلك القصص، وأكثرها روايات بوليسية مثل روايات المؤلف (موريس لبلان) اللص الظريف ارسين لوبين...

وشرلوك هولمز (للسير أرثر كونان دويل)... إضافة لبعض القصص لكتّابٍ آخرين عرب وأجانب، وكانت أجرة الكتاب لمدة **24** ساعة مابين خمسة قروش (فرنك سوري)
وعشرة قروش سورية، وقد تصل إلى ربع ليرة للمؤلفات كبيرة الحجم...الخ.
كانت أم محمد صاحبة البيت ترفض السماح للمستأجرين

بإضاءة أيّ مصباح كهربائي، بعد الثامنة مساءً في البيت، وينسحب هذا الأمر على جميع السكان من مستأجرين أو أصحاب البيت أنفسهم... حيث أنَّ استهلاك الكهرباء يحسب من ضمن أجرة البيت البالغة ثلاث ليرات سورية في الشهر... لغرفةٍ ومطبخ... وحمام مشترك لكامل السكان، وتسمح بالإنارة في الحمام الذي يستخدمه جميع السكان إضافة لأصحاب المنزل وبناتها وأحفادها، الذين يستغلون الدور الأرضي والفسحة السماوية المعروفة في البيوت الشامية... وكان الفتى ابن أحد المستأجرين مولعاً بالمطالعة وعمره لا يزيد عن الثالثة عشرة، تلك الهواية التي نمّاها له والده منذ الصغر...

يستغلها أيام العطل وخاصة العطلة الصيفية...
لذلك كان يستغل دخول الحمام لكسب دقائق بعد التقنين للمطالعة، لكن الفكرة فشلت مباشرة فالحمام يستعمله أكثر من عشرة أنفس...
وكان المصروف اليومي لهذا التلميذ هو نفسه... عشرة قروش يومياً عدا يوم
الجمعة أيّ العطلة الرسمية، التي هي للمطالعة التي

يعشقها، لذلك اقتصرت الروايات المؤجرة على رويات الهلال وروايات الجيب... وكان قطع الكهرباء الإجباري يحدّ من هوايته.

وكان قاطع الكهرباء لجميع الغرف يرتبط بمصباح الزقاق الخارجي فوق البوابة أيضاً، حارَ في أمره... الأم متوفاة، ويعيش مع والده، وليس له تسلية سوى تلك الكتيّبات يملأ فراغه بها، والمشكلة أنَّ قراءته لها في الليل محدودة بسبب إطفاء الأنوار الذي يعم على جميع سكان البيت حتى إنارة الباب الخارجي تتبع لهذا التقنين...

قرر الفتى الانتقام من أم محمد... بما أن غرفته تطلُ على الشارع فوق البوابة مباشرة... ابتدع طريقة لكي تبقى الكهرباء مضاءة، قام بربط خيط رفيع بمطرقة الباب من جهة الشارع الخارجية في الدرفة الثابتة من الباب، وجعل طرفه الآخر في غرفته ودلاه من النافذة.

فما أن تطفئ أم محمد النور حتى يجذب الخيط ويقرع الباب عدة طرقات، عندها تنير أم محمد الكهرباء لترى من الطارق. فيستغلها الفتى ليتابع هوايته في القراءة خلال الدقائق القليلة التي تقوم فيها بالبحث عن الطارق!

وهكذا يكرر الأمر كلّ ليلة عشرات المرات... وأحياناً

تترك أم محمد النور مضاء عدة ساعات قبل أن تقوم بإطفائه، ولم يخطر في بال أحد من أولادها أو حتى السكان ما كان الفتى يقوم به.

حاولوا البحث عن السبب لكن دون جدوى، ووقف أحدهم في الخارج يراقب... وبما أن نافذة الفتى مطلة على الخارج لذلك كانت أم محمد تفشل في كشف الحقيقة، واستمر الأمر على هذا المنوال عدة أيام... بعدها ذهبت الحاجة أم محمد إلى شيخ الجامع في الحيّ، تشكو أمرها له... فقال لها:

_ إن كنت تسمعين طرق الباب ولا ترين شيئاً، فهذا يعني إنّه والله أعلم من عمل الجن...

_ معقول هذا يا شيخي؟

_ أنت تقولين أنّكم راقبتم البيت من الخارج دون جدوى.

_ نعم يا شيخي لم نكتشف شيئاً.

_ هذا هو... وإنّما خلقنا الجن والإنس ليعبدون... صدق الله العظيم.

_ لا إله إلا الله يا شيخي... والحل؟

_ واضح يا حجة، الجن لا يظهر إلا في الظلام... دعي أنوار البيت مضاءة وبخّري المنزل واقرئي القرآن ليلاً نهاراً، ربما يخرج الجن من منزلك...

طبعاً كان هذا غاية ما يريده الفتى.
استمر الأمر حوالي شهر تقريباً ثم اكتشفت الحيلة صدفة... وعادت الأمور الى ما كانت عليه قبل شهر العسل ذاك، فما أن تغرب الشمس حتى تطفئ أم محمد أنوار البيت كاملة... وينتهي الحلم...

****

من غشنا ليس منا،
ولا يصح عند الله سوى الصحيح...
وحبل الكذب قصير.

" عروس في الطائرة "

لم يزعج العروس الضجيج المنبعث من محركات الطائرة، بل ربما لم تنتبه له، ولا همّها أن تذكرتها فرضت عليها أن يكون مقعدها خلف أجنحة الطائرة، وهو المكان الذي يزداد الضجيج فيه عن مقدمة الطائرة، ولا ضايقها هدير محركاتها القوي جداً... الأصوات العالية تمر بأذنيها فقط ولا تدخل عقلها... هناك ما يشغل فكرها أهم مما يدور حولها... وما يعتلج في صدرها يمنعها حتى من التفكير بهذا.

تنظر العروس بعينين حزينتين آملتين بعريسٍ يصل بها إلى قمة أحلامها... فملامح وجهها تفصح عن فرحة تنتظر منها أن تكتمل بوصول الطائرة، وتنبعثُ من عقلها لتنسيها ما يدور حولها.

ذلك العقل المتلهف للحظة اللقاء بفارغ الصبر، للقاءِ عريسها عند وصول الطائرة إلى المطار.
وبين الفينة والأخرى تُخرجُ العروس مرآة صغيرة من

حقيبتها... تبدو هذه المرآة للجميع وخاصة لمرافقها الكهل أنّها تنظر فيها كي تُصلح من زينتها.
إنّما الحقيقة أنَّها كانت تمتع نظرها بصورة فارس أحلامها المسافرة لأجله...

كانت قد ألصقت صورته على المرآة الصغيرة من قبل...

ها هي الآن تتأمل ملامحه للمرة الألف، فيهفو قلبها إلى قسماته الرائعة كما تراها في الصورة، هذا الشاب الوسيم الذي لم تعرفه يوماً ولم تلتقِ به إطلاقاً! قبل أيام فقط جلست على مرتبة العروس في قريتها، ولكن دون عريس، رقصت في فرحها دون أن تطوق رقبة عريسها... زرعت صورته في قلبها دون أن يغرسها هو فيه.

الحكاية فقط صورة، أُرسلت منه موجهة لأهله للبحث عن عروس له.

وافقت هي على رغبة والديها بعد أن فشلت اعتراضاتها المترددة، لكنّها بالتالي خضعت لرغبة عقلها ووالديها. قلبها ما زال نقياً، وعقلها لم ينفتح لغرامٍ قديمٍ يعيقُ الفكرة. وافقت...

أما هناك في الطرف الآخر وفي صالة المطار...
يجلسُ شابٌّ تشوبه دمامة بسيطة في وجهه وقِصرٌ بسيطٌ في قامته، ينتظر ويشغل نفسه بالنظر إلى ساعته الذهبية، ويداعب خاتمه المصنوع من الذهب الخالص، ثم ينفض بذلته الأنيقة بحركة مسرحية واضحة للعيان من غبار لا وجود له... فهو يجلس في صالة المطار، من أين سيأتي الغبار؟

والقلق يبدو على مُحيَّاهُ... يحادثُ نفسه بشكلٍ متواصلٍ دون انقطاع:

تُرى ما الذي جعل العروس تقبل بي... لست وسيماً إلى الدرجة التي تجعل فتاة جميلة ترضى بالزواج بي، لمجرد رؤية صورة فقط اعتنى المصور بتهذيبها إلى درجة كبيرة، وخارج الصورة حقيقة أراها مزرية... أنا نفسي لا أستسيغ شكل وجهي حين أراه في المرآة... فكيف بفتاةٍ سترى واقعاً بعيداً عن الحقيقة... ثم يفتل أصابعه متسائلاً: ربما قدري كتب لي ذلك النصيب!!
يعود إلى واقعه ويبتهل إلى ربه قائلاً:

ياربي لماذا لم تهبني بعض الحسن كما أعطيت أخي الجالس الآن على الطاولة قبالتي...قليل من تلك الوسامة تكفيني!!

وقليل من وسامة أخي تخصني بها لن تعيب في وسامته...لكنّها تحسن صورة وجهي قليلاً.
وبين لحظة وأخرى يقطع تأملاته بابتسامته للأصدقاء الذين حضروا معه لاستقبال عروسه، ومشاركته فرحته وزفها من المطار إلى بيته... وهو المغترب البعيد عن بلده، ويقيم في دولة أخرى يعمل فيها، ولأسباب خاصة لا يمكنه السفر إلى بلده... قفز قلبه الآن فرحاً وقلقاً.

أُعلن الآن في صالة المطار عن قرب هبوط الطائرة التي تحمل فتاة أحلامه، التي تعيش في دوامة من تكهنات هائلة! كيف ستستقبله؟ كيف ستسلِّمُ عليه؟ تقول في نفسها:

لن أسمحَ له بتقبيلي أمام الحضور... فقط سأمد يدي لمصافحته، ثم كيف ستكون طبائعه بعد ذلك؟ أين سنسكن؟ متى سأعود لزيارة أهلي؟

تساؤلات كثيرة، أهم ما فيها أن ليس فيها ما يدعو للتشاؤم، قيل لها أن مسموعات الشاب جيدة جداً...
أوهكذا أخبرها والدها... انتهت إجراءات الدخول البسيطة... كان ذلك أيام ربيع العرب في السبعينيات من القرن الماضي، أيام كان الكلّ أحبة والكلّ أخوة...
أما هو، أيّ العريس فلا شيء يفكر فيه سوى كيف ستتقبله عروسه للوهلة الأولى، وما يتلاعب بعقله من التهيؤات المرعبة من أن ترفضه... ثم يفكر في البطولات المستقبلية مع عروسه القادمة.
وأخيراً وصلت العروس بعد أن انتهت إجراءات التفتيش والدخول... نظرت والحياء يسبقها، إلى الشابين اللذين تقدما للترحيب بها، ومن خلال نظرات مسروقة بين الحين والآخر، بدأت تشعر بحريقٍ في جوفها بدأ ينتقل إلى فمها.
الصورة التي تحملها أقل جمالاً من الحقيقة! تبسمتْ صراحة حتى بانت نواجذها وغمرتها سعادة غامرة... لكن ما لفت نظرها، وأثار استغرابها أنّها رأت عريسها الشاب الوسيم صاحب الصورة يقود طفلاً من يده...
تساءلت بينها وبين خالقها لمن هذا الطفل؟! هل هو ابن

أخيه؟ ذلك الشاب الدميم الخجول الذي يتقدم معه، لكنّه يبدو أكثر فرحاً من زميله، ترافقهما امرأة متوسطة الجمال.

مدّ الشاب الوسيم يده إليها مسلّماً، ما جعل الهدوء حينذاك يعود إلى قلبها، وانفرجت أساريرها، خاصة حين رأته يمد يده مصافحاً وليس الشاب الآخر، لكن الفرحة لم تتم فقد أمسك الشاب الوسيم بيد زميله ووضع يدها بيده، وهو يقول:

- مبارك لكما... بالرفاه والبنين. فوجئت العروس بما لم تكن تفكر فيه أو يخطر على بالها!

صرخت... ثم رمت طرحتها أرضاً وهي تقول:

- ليس هذا من جئت لأجله، وليس هذا من أعطوني صورته، خدعتموني...

لم تهدأ ثورتها إلا حينما جاء رجال الأمن يستطلعون سبب تلك الضوضاء، وأعقبهم مرافقها الرجل الكهل.

تقدم أحد الشباب الحاضرين من فاعلي الخير، وسألها عما تطلب، أجابته بجفاء شديد:

- أريد العودة إلى بلدي الآن.

أخذ منها جواز سفرها... وبسرعة البرق ذهب به إلى مكتب الطيران بصالة المطار الثانية، ثم عاد بعد قليلٍ وقال مخاطباً الجميع وهو ينظر إليها:

- لا يوجد موعد لطائرة مسافرة إلى دمشق اليوم، وغداً بإذن الله ستكونين بين أهلك، لقد أكدت لك الحجز. ولحسن الحظ إن تذكرتك بالأصل كانت ذهاباً وإياباً أنت ومرافقك، والليلة ستقيمين في بيت هذه الأسرة المحترمة، وأشار إلى زوج وزوجته من أصدقائه ومعهما عدد من الأطفال... ثم أضاف: لقد ساعدني الخيرون هنا من موظفي المطار بالاتصال عن طريق هذا المطار بمطار دمشق، كي يخبر مودعيك هناك بضرورة البقاء في المطار حتى وصولك إليهم صبيحة غدٍ.
وعلى صوت إذاعة صالة المطار وهي تنادي الركاب للصعود إلى الطائرة، كانت العروس تشكر مودعيها ثم أمسكت بيد رفيقها الكهل تقبلها، وتعتذر على ما ناله من تعب بسببها.

حاولوا تهدئة خاطرها، ووعدوها بكلّ ما يسعدها، إلا أنّها أجابت:

- ما بني على باطل سيبقى باطلاً!

****

مافاز قوم كانت ثقافاتهم السحر

حتى ولوكان مصدره

تاريخ الأولين

المملوء بتلك الحكايات،

والله أعلم.

" الأرجل الطويلة "

(من أساطير الأجداد)

أمثال هذه القصص للخيال فيها دور... وللأسطورة دورٌ هام... ولحكايات الأجيال السابقة الدور الأكبر.

كان اعتقاد أهل الأرياف بتلك الخرافات في أيّ بقعة من عالمنا العربي يشغل سهراتهم ويدفعهم إلى تصديق مثل هذه الخرافات، ولو أنّهم لم يشاهدوا شيئاً منها، ويثيرُ بأنفسهم الخوف وتجنب الوحدة والانفراد في الأماكن المغلقة، أوالخرائب المهجورة والكهوف، لذلك كان معظمهم ينسبون حدوثها إلى تلك الأماكن.

وكان التحدث بها يأخذ جل سهراتهم التي لا تتعدى سهر بضع ساعات بعد العودة من أعمالهم الزراعية آخر النهار، فكانوا يروون تلك القصص مقتنعين أنّها أحداث حصلت، ومؤكدين صدق من رواها وأمانة من نقلها، خاصة في ليالي الشتاء الطويلة... يحاولون قطعها برواية أمثال تلك القصص وتزيينها بتلك الحكايات...

(قصتنا).....

لم يكن الفجر قد بزغ جيداً حين ركب أحمد بغلته، منطلقاً الى حقوله البعيدة عن القرية...

الموسم الآن موسم حصاد، ويجب عليه أن يبدأ العمل مبكراً، بعد قليل سترتفع حرارة الشمس وتلتهب، ولن يتمكن من الحصاد، لأنّ سيقان السنابل من الآن وحتى وقت الضحى، تبقى ندية وطرية، أما بعد ساعات الضحى فتغدو قاسية، ويصعب حصادها وتتكسر بسرعة بين أيديهم وتذهب هباءً.

لم يكن من شيء يقلق أفكاره سوى وحدته في العمل هذا اليوم... زوجته اليوم لن ترافقه...

لديها عمل آخر في البيت، وعليها أن تفرغ نفسها لواجباتها المنزلية الدورية، من عجن وخبز وطبخ ....الخ.

وما تجمع لديها في المنزل قبل أيام من واجبات لابد لها من القيام بها.

قررت ألّا تذهب لمساعدة زوجها هذا اليوم بالذات... أيقظها زوجها مبكراً لكنها اعتذرت... انطلق على أمل أن يعود مبكراً، قبل أن ينتصف النهار وتشتد الحرارة.

والآن ها هو الفجر قد بدأ يدفع بالظلام أمامه، والشمس على وشك أن تبزغ، وبقي أمامه القليل للوصول إلى الحقل... لا يوجد أحد حوله في الطريق من سكان قريته...

وكما يبدو أنَّ البعض من جيرانه سبقوه هذا اليوم مبكرين، بل ربما يكون هو من سبقهم وخرج قبلهم، فجأة شعرَ وكأنَّ شبحاً يحاذي بغلته ماشياً... فوجئ به ولكنّه لم يعبأ به كثيراً... لكنه عزا ذلك إلى تهيؤات رسمها له عقله، نظر إلى الجهة التي شغلته فلم يجد شيئاً، لكن الشبح ظهر مرة أخرى في الجانب الآخر من بغلته...

أحس بقشعريرة تجتاح بدنه ومع هذا لم يهتم كثيراً في بداية الأمر... نظر بطرف عينه نحوه ليتأكد مما يراه، فتبين له أنّها امرأة حقيقية تلبس ثياباً كثياب نساء القرية عند العمل في الحقول، ولكنّه لم يسبق أن شاهدها في قريته...

تحولت الآن إلى يساره بعد أن كانت إلى يمينه، وها هي سبقته بخطوة فقط... لم يسألها من تكون أو كيف ظهرت قربه أبداً، ولم يخطر بباله أنَّها غريبة عن قريته، ولا خطرَ بباله أن تكون من العالم الآخر... لكنّه شك بأنَّ ما كان يراه قبل قليل يعود إلى قلة النوم أو خيالات الأشياء قبيل طلوع الشمس، وصورت له تلك الخيالات هذه المرأة على أنّها شبح!

ناداها بلطف:

اركبي يا أختاه خلفي إن كنتِ تريدين تلك الجهة، وأشار بيده إلى حيث يتجه مشيراً وإلى ظهر الدابة خلفه...

لم تردّ عليه، بل تراجعت نحو الخلف حتى توارى وجهها ثم تحولت نحو الجهة الأخرى...أو تعمدت ألّا يرى وجهها الآن... لم يبالِ بالأمر أيضاً، إنّما أشارَ بيده إلى صخرة قريبة ترتفع عن وجه الأرض قليلاً وقال: انتظري قليلاً حتى أُجانب تلك الصخرة كي تتمكني من الركوب، ولم يتم كلامه... لحظة حتى هزت القشعريرة بدنه... لم ينهِ كلامه حتى كانت تستوي خلفه، وتتمسك بثوبه من الجهتين، هنا دبَّ الرعب في قلبه وانتهت الرجولة عنده!!

المعروف بأنَّ البغال هي من حيوانات الركوب المرتفعة أكثر من غيرها من الدواب كالحمير، لذلك من المستحيل على المرء ركوبها دون وضع رجله اليمنى في الركاب المعدني المعلق في أسفل الجانبين من السرج... أو من على صخرة تقف جانبها البغلة... استفاق من ذهوله على زيادة الضغط على خاصرتيه، بعد أن شعر أنّها استوت خلفه على البغلة...تصبّرَ وسكتَ فلا حول ولا... فما حدث فوق إرادته. لكز بغلته التي انطلقت بهما وقال في نفسه:

إن نساء القرى بشكل عام لديهن الخبرة والممارسة الطويلة بركوب تلك الحيوانات، ولكن كيف قفزت؟ كيف؟ فطولها حسب ما رآها للوهلة الأولى، لا يزيد عن طول امرأة عادية، لكن كيف حدث ذلك بتلك السرعة؟!

هش دابته ولم ينطق بكلمة واحدة... لحظات وتناهى إلى سمعه ما زاد حيرته أكثر مما هو فيه... تساءل:

تُرى ما هذا الصوت الذي بدأتُ أسمعه... وكأنّي أسحب شيئاً ما خلفي... يا إلهي الآن أصبح الصوت يأتيني من الجهتين... وها هو الغبار يجري خلفي بكثافة شديدة ويدفعه الهواء أمامي!

أصابته قشعريرة زلزلت كيانه، حتى أنه لم يجرؤ أن يدير رأسه إلى الخلف ليكتشف السبب، ومع هذا بدأ يحاول سرقة نظرات إلى اليدين الممسكتين بخاصرتيه... لقد طوقتاه... جن جنونه الأصابع طويلة جداً... حاول النظر إلى الخلف... لكن الخوف جعله يتردد كثيراً... ومع ذلك قرر أن يلتف برقبته إلى الوراء بسرعة بعد أن تمالك نفسه قليلاً، وهو المعروف بشجاعته وقوته.

التفت بسرعة نحو الصوت الذي يسمعه وشكّ أنّه يسير معه.

وكانت المفاجأة التي أوشكت أن تفقده وعيه... ما أن وقع نظره على الأرض من أحد جانبيه حتى جُنَّ جنونه، وجف ريقه، ولم يستطع أن يصيح من الرعب!

لقد رأى أرجل المرأة استطالت كثيراً بشكل مرعب، وها هي تشحط على الأرض خلف دابته!

لقد غدت طويلة جداً! هنا فهم كيف أن المرأة استطاعت الركوب خلفه دون أن تستعين بالوقوف على الصخرة.

لكن هول المنظر أخرسه ولم يستطع الصراخ، ولم يعرف كيفية التصرف مع هذه الحال المرعبة... قوة جسده لا اعتبار لها مع تلك المخلوقات أي مخلوقات العالم الآخر...الجن وها هي التي تداعبه ليست سوى جنية!

لم يجد أحمد بُداً من أن يتمالك نفسه من جديد... ويتصدى لذلك الموقف بطريقة ما، أخذ يفكرُ بالوسيلة التي تنجيه، وقد خطر له أن يدفعها بكوعيه إلى الخلف، وفي ظنه أنّها ستنزلق وتسقط على الأرض، أو هكذا تخيل الأمر.

لكنّه أحس وكأنَّ شيئاً يعتصرُ جسده، حنى رأسه الى أسفل صدره ونظر إلى بطنه... الأيدي التي كانت تمسك بجانبي ثوبه وتطوقه على خاصرتيه... ها هي الآن استطالت حتى حزمت بطنه بالكامل... وها هو الآن أصبح في قبضة الجنية تماماً...

غدا في حالةٍ يرثى لها... ما زاد في رعبه أنّه بدأ يسمع أصواتاً مرعبة أشبه بالصدى كصراخ الرضَّع.

حاول القفز عن الدابة ولكن أين له هذا؟

الخصر مطوق تماماً، وصدرها يضغط على ظهره من الخلف، تسمرَّ... نظر إلى أذنيّ دابته، حركتهما لا تدلان على أن شيئاً ما يحدث على ظهرها، ومع بدء انتشار الضوء قبيل الشروق بدأ خيالهما له وهما تتحركان بسرعة لطرد الذباب عنهما، عندما تشابكت ظلالهما على الأرض مع أرجل الجنية... طبعاً حسب رؤيته هو... ومع كل حركة تظهر ثغرات ضوئية بينهما وبين ظلال أرجلها فيزداد رعباً، أما الدابة... لم يظهر عليها أنها ترى شيئاً مما يرى هو... وإلّا كانت جفلت أو تغيرت حركتها، وبالتالي كان أحمد هو الوحيد الذي تظهر أمامه المرأة الجنية!

بعد قليل ارتفع الظل أمامه على الأرض وسبق رأس بغلته طولاً... رفع نظره إلى الأعلى يدعو الله أن ينقذه، فرأى أن السبب أن جسدها استطال إلى ما فوق رأسه وفجأة... حنت رأسها فأصبح وجهها أمام وجهه.

تلاشى المسكين وحارَ فيما يفعل ولكنّه تذكر أن من كان يروي تلك الأساطير كان يقول:

إن قراءة سورة الكرسي تطردُ الجن... بدأ بالبسملة المتواصلة ثم قراءة سورة الكرسي بصوتٍ مرتجفٍ... وعلى

الفور، وقبل أن ينهي القراءة شعر أن الضغط بدأ يخف عن خاصرتيه، وأيادي الجنية تتراخى... وأخيراً توقف الضغط... وسحبت وجهها من أمام وجهه... نظر إلى حيث كانت تسحب أرجلها، فوجدهما قد تقلصتا وانتصبتا وأصبحتا على الأرض... لكز بغلته بسرعة مع دفعة قوية للجنية بكوعيه الى الخلف، انزلقت على إثرها عن ظهر الدابة... طبعاً كان لسانه لا يلتوي بحلقه وهو يقرأ سورة الكرسي متابعاً سيره على بغلته.

ويروون إنها لم تستطع مطاردته، فقد شلّت حركتها بسبب قراءة القرآن، إلا أنّها كانت تناديه باسمه وهو يبتعد ببغلته، وبسبب تلاوة القرآن الكريم اختفت .... هكذا كانت تروى مثل تلك القصص في سهراتهم والعديد غيرها... وعلمها عند الله.

****

المال والبنون زينة الحياة الدنيا
لايعلم سوى الله متى تُشق
النفس نفسين أو أكثر...
يهب الحياة لمن يشاء، متى شاء.

" خطأ حسابي"

نظرَ إلى زوجته بطرفِ عينه وقال:

_ اصمدي يا حبيبتي، لقد لاحت لنا أنوار المدينة، وها نحن الآن على وشك الوصول إليها. _ حبيبي انتبه جيداً إلى الطريق ولا تشغل بالك، وماكتب الله سيحدث لا محال.

_ هل ما زلت قادرة على التحمل؟

_ خففْ سرعتك الآن، أسمع صوت تحذير عداد السيارة بسبب السرعة الزائدة.

_حبيبتي... كما قلت أنت... الإرادة لله يفعل ما يشاء

_ في حالتي هذا صحيح، ولكن في حالتك يعتبر انتحاراً! قل لي ما هي سرعتك الآن؟

_لاتشغلي بالك سرعتي لا تتعدى الثمانين كم/سا.!!

وتكلف ضحكة قصيرة ثم أردف:

ولكن فوق المئة...

_ شهقت رعباً، وصاحت به قف... قف. ثم قالت بصوت

مطول ومتألمة: لا بل تاااااااابع السير. ولكن خفف السرعة أرجوك.

_ ماذا هل جاءتك طَلْقَة؟

_ مرت بسلام لا تخف، ثم أخذت تدعو:

_ يا ربي أمهله من الخروج إلى الدنيا نصف ساعة خذها من عمري أشهراً.

أرادت زوجته أن تغير في الحديث قليلاً، بينما آلام المخاض تعتصرها عصراً!

_ لا تخف يبدو أن المولود أحس بحالنا فأجل نزوله قليلاً، لم تكن تريد أن تشغل باله عن الانتباه إلى الطريق أكثر من ذلك...

لكن المسكينة تتحمل آلامها مبرحة مكرهة، إنّما ما زالت تشعر بقدرتها على الصمود.

_ تمالكي نفسك حبيبتي، اقتربنا.

_ لاعليك... صابرة... انتبه للطريق... صامدة... ألا ترى بأنّ القمر يرافقنا! ويسير معنا بجماله، واكتماله!

_ نعم... ولكن لحسن حظي يسير معي قمران واحد في كلّ جهة.

ردت ممازحة:

_ يالك من متلون! ولم تكمل، ولكنّها قالت:

هل أنا الوحيدة التي تقول لها مثل هذا الكلام؟

_ أتريدين أن أقسم بالله؟ كان يحاول تسليتها قليلاً ومداعبتها.

ردت ممازحة:

بالأمس فقط سمعتك تقولها لغيري عدة مرات!

_ نعم أكيد... وهل تغارين من ابنتك؟ لم تجبه.

كان بينه وبين نفسه يلعن طول هذا الطريق الذي لم يعد له نهاية عليهم، خاصة ولم يكن في حسبانه أن تلد زوجته اليوم، أوهكذا قالت له في الصباح، لذلك سمح لها بمرافقته إلى تلك المدينة لأجل عملٍ يقضيه خلال يوم واحد. على أن يعود في اليوم نفسه. كما أنّه لم يستطع ترك زوجته وحيدة. خشية أن يفاجئها المخاض. ولا يوجد من يعينها، وليس في البيت معها سوى طفلتهما الصغيرة،

وهذه لا حول لها ولا قوة، على هذا وجد أن من المستحسن أن ترافقه. ومعهما طفلتهما التي تغفو الآن على مقعد السيارة الخلفي.
صاحت به:

_ قف الآن. قف... لم يعد لي قدرة على التحمل...
_ يا إلهي... نحن الآن في مدخل المدينة، والطرق خالية، لقد أوشك الفجر على البزوغ... المطلوب عشر دقائق فقط.
لكنّها الآن أخذت تصيح من الآلم... فاجأها المخاض... وقع الذي كان مقدراً له أن يقع، ولكن على حساب زوجته ما زال أمامها عدة أيام! لم تعد فائدة للسرعة فالمسافة المتبقية وإن كانت قصيرة تكثر فيها المطبات الصناعية والإشارات المرورية وبعض العوائق المختلفة، كالمنعطفات وغيرها، وفي البداية كان يخدمه صمود زوجته الذي فُقد الآن...

نظر حوله وانحرف نحو مجموعة من أشجار الشوارع تسمى مظلة الشاطئ، وهي أشجار كثيفة الأوراق، تزين الشوارع (زنزلخت).

ساعد زوجته على النزول بسرعة كبيرة، وفرش معطفه تحت الشجرة.

ولحسن حظيهما إن ابنته نائمة لم تستيقظ، واستطاع الزوج مع ندرة الخبرة لديه، أن يشرف على ولادة زوجته.

أمسك بالمولود من قدميه وواجهته مشكلة قطع الحبل السري ولكن لحسن حظه عندما كان طفلاً صغيراً كان يسمع أحاديث النساء مع جدته التي كانت تعمل قابلة توليد، فعمل ما تذكر.

لف المولود بقميصٍ خلعه عن جسده، وقاد زوجته بيده الأخرى، وتوجه إلى السيارة. مرت دقائق، وإذا بزوجته تعود إلى الصراخ من جديد.

صاح والخوف يملأ قلبه يسألها عما ألم بها:

ما بك؟ خشية أن يكون قد حدث لها عارض ما كالنزيف، أوغيره لكنّها أشارت له بأن مولوداً جديداً ربما يحاول اللحاق بأخيه.

عاد إلى المكان نفسه وهو يستغرب تلك المصادفات، ويلوم نفسه على عدم أخذ إجازة بدلاً من هذه المخاطرة، ثم قام

بالعملية الأولى نفسها، وضعت الأم الطفلين بحضنها وانطلق بالسيارة إلى المدينة.

ما أن وصلوا باب المشفى حتى صرخت الأم من جديد! صاح بها:

كفى كفى، ولكن هذه المرة كانت صرختها من الآلام الشديدة الناتجة عن الولادة. وحين دخلوا المشفى قال لها ممازحاً:

الآن ضعي كل ما عندك...

****

لواجتمعت الإنس والجن على أن يضروك بشيء
لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.
ولواجتمعت الإنس والجن على أن ينفعوك بشيء،
لم ينفعوك إلابشيء قد كتبه الله لك،
رفعت الأقلام وجفت الصحف
صدق رسول الله

" لصوص الظلام "

كاد الليل أن ينتصف حينما استيقظ صاحب الفيلا على أصوات صراخٍ عالٍ، أصغى جيداً إلى مصدر الصوت! وجد بأنّه ينبعثُ من الفيلا المجاورة التى تُبنى حديثاً، وما زالتْ في مراحل التشطيب الأخيرة.

وضح لديه بأنَّ الصوتَ هو صوتُ إنسان! لكنّه لم يحدد مكانه تماماً، المهم أنّه تأكد من مصدره، منبعه الفيلا المجاورة لمسكنه! تناول مسدسه ومصباحاً يدوياً، وتناول مزهرية صغيرة من الممر قبل أن يخرج، وضعها أمام باب فيلته خشية أن ينغلق الباب خلفه خاصة أنّه لم يحمل المفاتيح معه، فزوجته في زيارة لبيت أهلها مصطحبة الأولاد معها بسبب عطلة نهاية الأسبوع، فقد يقع في مشكلة بسبب عدم وجود من يفتح له الباب إذا أغلق، جرى الرجل مسرعاً نحو الفيلا مصدر الصوت.

وجد باب السور مفتوحاً، توقف قليلاً وأصغى من جديد، بدأ الصوت يرتفع ويتسارع!

عندها دخل على عجلٍ باتجاه الصوت وقد أضاء مصباحه،

لأنّه يعلم أنَّ البناء ما زال قيد الإنجاز وغير مسكون، ولكنّه في الوقت نفسه يعلم أنَّ هذا البناء له حارس يبيت فيه، فشغله عن التفكير بأيّ شيء سوى بالحارس ظاناً أن الاستغاثة تصدر منه، وأن مكروهاً ما وقع له، لأنّه يعرفه وكان أحياناً يكلفه ببعض المهام، كأن يحمل له جرة غاز أو أغراضاً أخرى ينقلها من سيارته إلى داخل منزله، لكن الآن صوت الاستغاثة أصبح يسمعه متقطعاً بين الحين والآخر... دخل إلى الدور الأرضي.

ولكن الصوت الآن بدأ يصدر من الأعلى... صعد إلى الدور الأول.

الصوت أصبح فوقه من جديد، صعد الى الدور الثاني، لم يجد مصدر الصوت، وبدأ يسمعه من على السطح، صعد إلى السطح.

انتقل الصوت الى الدور الثاني الذي كان فيه، هنا شعر بخوف شديد، وندم لأنه لم يبلغ الشرطة من البداية.

ولكنه كان مطمئناً لقوة جسمه البدنية، وهو المدرب رياضياً، وأيضاً إلى السلاح الذي يحمله، عاود النزول ثانية إلا أن الصوت بدأ يتغير من مكان إلى آخر، أطفأ مصباحه وجلس يصغي، إلا أنه لم يعد يسمع شيئاً، أخذ يتسلل في

الظلام ولكنه لم يستطع المتابعة، والمضي في الظلام خشية السقوط، في النهاية قرر الخروج والعودة إلى بيته بعد أن لم يجد تفسيراً لما يحدث، خاصة وأنه بدأ يتوسوس من الجن والشياطين وإن كان لا يصدق كثيراً تلك الخرافات. أنار مصباحه من جديد، وعندما لم يعد يسمع شيئاً فكر بترك المكان والعودة، فجأة عاد الصوت على شكل نهنهات وحشرجات في مكان لم يستطع تحديده، عاد إلى البحث مرة أخرى. الآن شعر أنه يكاد أن يفقد عقله، لربما هناك من يتلاعب على الأكثر بأعصابه لغاية لم يدر كنهها! أخذ يتساءل: ترى ما الذي يحدث هنا؟ هل ما يحدث هنا من عمل الجن أم أن هناك من يتربص بي، ويريد تحطيم أعصابي أولاً؟

بدأ يتملكه الخوف والرعب الحقيقي، خاصة عندما صوّرَ له عقله أنَّ ما يجري هو عمل الجن والشياطين، حينها لن تنفعه قوته البدنية الهائلة، لذلك أراد الخروج والهرب بأيّ ثمن، هذا ما عزم عليه، فاتجه نحو البوابة الرئيسية التي دخل منها قبل قليل، لكن الخوف تملكه أكثر حين رأى البوابة مغلقة، بل إنّها مقفلة ولا يمكن فتحها، أضاء مصباحه اليدوي فوجد أنّها لم تقفل بمفتاح أبداً، بل من

الممكن أنّها ربطت من الخارج!
توقف قليلاً، ثم قرر أن يدور حول سور الفيلا من الداخل باحثاً عن مخرج.
وبعد البحث وجد مخرجاً آخر، والسور مرتفع جداً. طال بحثه وأخيراً لحسن حظه وجد كومة من مخلفات البناء من الجهة الخلفية داخل السور.
وعلى ضوء مصباحه اليدوي بدأ ينقل منها بيديه بعض الكتل إلى قرب الحائط، ما سهل له الصعود إلى أعلى السور ثم القفز إلى خارج البناء إلى الشارع الخلفي.
استدار صاحبنا حول السور قاصداً العودة إلى بيته، وكانت المفاجأة حين وصل إلى البوابة الرئيسية التي حاول فتحها منذ دقائق والخروج من حيث أتى، على ضوء الشارع تبين أن البوابة مقفلة بعصاً قوية أدخلت داخل مقبضي صفقتي البوابة، لهذا لم يستطع فتحها من الداخل.
شك في أن الأمر محاولة لتعطيله وإبعاده عن شيء ما لم يعرفه.
نظر نحو بوابة بيته التي تركها مواربة قبل قليل، ما رأى على أنوار الشارع الخافتة وجود شاحنة كبيرة نوعاً ما تقف أمام بيته محملة بأثاث مختلف.

ظنَّ في بداية الأمر أن يكون أحدهم قد تاه عن طريقه وتوقف للسؤال عن عنوان أحد الجيران.
اقترب قليلاً وكانت المفاجأة، الأثاث يشبه أثاث بيته! تقدم قليلاً... حينذاك صعقته المفاجأة، إنّها أغراض بيته بل هي نفسها! بيته يتعرض للسرقة الآن!
وقف مذهولاً، خاصة حين خرج بعد لحظة رجلان يحملان سجادة كبيرة ثم رمياها في صندوق الشاحنة، فما كان منه إلا أن أطلق بعض الطلقات في الهواء.
ما حدا بالرجلين أو اللصين إلى ركوب السيارة بجانب زميلهما السائق الذي كان ينتظر خلف المقود.
فقد كانت السيارة كما يبدو جاهزة للانطلاق، ولكن بسرعة بديهة قام بها صاحبنا، جرى نحو مؤخرة السيارة وقد أصبح قريباً جداً منها.
حاول جاهداً أن يتعلق بصندوقها الخلفي وهي تهم بالانطلاق، استطاع بعد مجهود ليس بالقليل الصعود إليها من الخلف دون أن يراه أحد من اللصوص بسبب تكدس المسروقات بشكلٍ عشوائي في صندوق الشاحنة.
انتظر قليلاً حتى تمالك أنفاسه، ثم تسلل بين العفش حتى وصل قرب الزجاج الخلفي.

كان قد بقي في مسدسه بضع طلقات، لذلك كان مطمئناً إلى قوته، فما أن هدأت السيارة سرعتها عند اقترابها من منعطف قاسٍ حتى أطلق النار على مؤخرة رأس السائق، ثم رمى بنفسه من السيارة إلى الأرض.

انقلبت الشاحنة على أحد جانبيها، وحوصر اللصوص في غرفة السائق بين مصاب وجريح ...

تجمع الناس على صوت إطلاق النار وانقلاب الشاحنة.

عندها تذكر جميع ما مرّ به، فقال لنفسه:

يبدو أن هؤلاء اللصوص كانوا يراقبون المنزل جيداً، استغلوا غياب أسرتي فقاموا بتلك الحيلة الخبيثة.

أي أن هناك من يطلب النجدة في الفيلا المجاورة، وأنّ أحدهم كان يقوم بالصراخ والأنين كي أذهب وأبحث عن مصدر الصوت، ثم تركني وهرب بعد أن أقفل البوابة، لتعطيلي أطول مدة ممكنة بينما كان رفيقاه يجهزان المسروقات، ولكن الله كان لهم بالمرصاد، وقدر لي كشفهم والتسبب في القبض عليهم.

****

ويل للحسد ما أعدله،
بدأ بصاحبه فقتله.
بسم الله الرحمن الرحيم...
(ومن شر حاسدٍ إذا حسد).
صدق الله العظيم

" شر الحسد "

قرر الملك أن يهدي خادمه مكافأة ثمينة على إخلاصه في خدمته، ما جعل الوزير يغتاظ حسداً، لذلك قرر أن يؤذيه بطريقة ماكرة، وعندما انفرد به، ناداه:

_ ضع أيها الساقي لثاماً على فمك أمام جلالته، لقد أخبرني بأن رائحة فمك تزعجه، فقال الساقي: أمرك يامولاي.

بعدها دخل على الملك واللثام على فمه! استغرب الملك من الساقي هذا التصرف، لكنه لم يعلق.
نادى الملك وزيره وسأله:

_ لماذا ساقينا يضع لثاماً على فمه؟
_ مولاي... الساقي يتضايق من رائحتك.

فوجئ الملك، لكنّه لم يظهر شيئاً أمام وزيره...

وبعدها أرسل الملك وزيره بمهمة له، ثم نادى الساقي:

مكافأة لك سأقدم لك صندوقاً مزخرفاً بالمجوهرات، خذه وانصرف الآن.

بعد قليل نادى جلاده وأمره أن ينتظر عند بوابة القصر، قائلاً: سيمر بك من يحمل صندوقاً مزخرفاً، اقطع رأسه على الفور، ولا تتردد.
صادف الوزير الخادم خارجاً فسأله: من أين لك هذا الصندوق أيها الساقي؟

_ أهداني إياه جلالته يا سيدي. طمع الوزير فيه وقال: أتبيعني إياه؟ وهل لمثلك حاجة به؟ خذ هذه الدراهم وأعطني إياه.

ردّ المسكين قائلاً:

_ وماذا أفعل به؟ إن دريهماتك تنفعني أكثر منه...
خرج الوزير وفي يده الصندوق، وكان الجلاد ينتظر تنفيذ أوامر الملك... حين رأى الوزير بيده الصندوق صاح بمعاونيه:

_ اقبضوا على حامل الصندوق، وضعوا رقبته على النطع.

إنها أوامر الملك...

بعد قليل جاء الخادم وقدم للملك شرابه المفضل كعادته... استغرب الملك رؤيته سالماً! سأله مستغرباً:

- من؟ الساقي؟! عجباً! أين الوزير؟ في تلك اللحظة دخل السياف يحمل رأس الوزير.

فقال الساقي:

الآن فهمت يا مولاي إن صاحب هذا الرأس هو من حفر، وسقط فيما حفر...

****

الأعمار بيد الله...

قد يعلم الإنسان بموعد الولادة،

ولكن عصي عليه

موعد لقاء ربه.

" أم سعيد"

يطلقون عليها أم سعيد، ولكن السعادة فارقت أحلامها عندما لم يرزقها الله بولدٍ تسميه سعيداً،

بعد حياةٍ طويلةٍ هانئةٍ مع زوجٍ يحُبُّها ويحترمها... زوجٌ لم يترك باباً لإسعادها إلّا وطرقه لكن القدر هو المسيطر.

سرقَ المسكينُ من الزمن عمراً طويلاً، لكن قدره كان هو الغالب، مرض أبو سعيد مرضاً كانت فيه نهايته!

أخيراً توفي أبو سعيد وتركها وحيدة لقدرٍ ظالمٍ، فحملت اللقب... أم سعيد لكن ذلك كان أيام الزوج الحنون أبي سعيد.

جلست أم سعيد تتذكر ماضي حياتها، عندما لم ينفعها على أيام الزوج محاولات العلم كي تحمل وتنجب، ولا نفعها من الطب حديثه لا زرعاً ولا أطفال الأنابيب... لم يقصِّر زوجها معها... أخيراً كيف مات المسكين وفي قلبه حسرات، أهمها أنْ ينجبَ ولداً يحمل اسمه، أو معاشاً يرفد

زوجته، لم يترك لها زوجها من الرزق سوى هذا المنزل الرحب الذي حواهما طيلة نصف قرنٍ من الزمن... بنياه بجدّهما وجهدّهما...

أخيراً ضاقت الحال بأمِّ سعيد عندما لم تجد لها مصدراً تعيش منه، أو يفك كربتها وتستغني به عن الحاجة، لذلك قررت أن تبدأ ببيع أثاث منزلها قطعةً... قطعة...

في النهايةِ لم يبقَ لها ماتبيعه... أعلنت عن بيع المنزل... كَثُرَ الطامعون فيه، ولكن الأسعار التي كانت تعرض عليها لم تناسب فكرتها لحل مشكلاتها...
كانت تنوي شراء شقة صغيرة من ثمن المنزل، وكانت تأمل بمبلغ يفيض لها من ثمنه بعد شراء الشقة تستثمره عند أحدهم وتصرف من ريعه لتعِشْ باقي أيامها منه...

هذا ما لم يتحقق، فلم يكن الثمن الذي كان يُعرضُ عليها جيداً يناسب فكرتها.
البيت أصبح متهالكاً لقلة العناية به، والثمن الذي يُسامُ به البيت، ما هو إلّا قيمة الأرض المبني، عليها فقط بسبب موقعها الجيد. في أحد الأيام طرق بابها أحد المحامين، ودار هذا الحوار بين المحامي وأم سعيد.

_ سيدتي قرأتُ إعلاناً لبيع المنزل.

_ نعم وهل تملك قيمته نقداً؟

_ كلا يا سيدتي، ولكن لدي عرض لك، أعتقد أنَّه سيعجبكِ.

_ ولكن أنا بحاجة لنقود كي أعيش بقية حياتي.

_ نعم وهذا هو عرضي لكِ، لا يعرف المرء متى يغادر الدنيا، أنتِ في السبعين من عمركِ، وقد تعيشين سنواتٍ طويلة ولا يعلم بها سوى الله.

_ لاأحُبُّ الإطالة هات ما عندك.

_ نعم... أصرف عليك مدى حياتك مقابل أن أتملك المنزل بعد وفاتك، وأتركِ تعيشين فيه مع ذكرياتك، حتى يأتي أجلكِ كما تستغلين حديقة المنزل كما كنتِ.

_ فكرةٌ جميلةٌ، ولكن ما الذي يضمن التزامك بهذا الكلام؟.

_ هذا الدفتر، وأخرج من جيبه دفتر شيكاته، وكتبَ باسمها شيكاً مؤجلاً بقيمة كبيرة للمنزل...

ثم أردفَ: فوق هذا في كلِّ شهرٍ يصلكِ مني مبلغٌ من المال نتفقُ عليه، بحيث يكفي لإعاشتكِ عيشةً كريمةً، وهذا

الشيك مجرد ضمانة لحقكِ بعدَ عُمرٍ طويلٍ، إذا لم أصدقْ معكِ أخسرُ كلَّ ما صرفته عليكِ بالإضافة إلى قيمة الشيك هذا.

_ فكرةٌ جميلةٌ، وأنا وافقتُ...

_ حسنٌ هيّا نكتبُ العقدَ.

مرتْ عشرُ سنواتٍ على ذلك الاتفاق... لم تَمتْ العجوزُ أم سعيد... كان خلالها المحامي يقدم لها ما اتفقا عليه بدقة.

مرت عشرة أخرى وأصبحت في التسعينات من العمر... وما زالت حية! تعدى المحامي المسكين مرحلة الكهولة، ثم هدَّته الشيخوخة وهو يأملُ في امتلاكِ البيتِ، دون جدوى.

احتفلتْ أم سعيد بعيد ميلادها المئة... ثم سارتْ في العقد الأول من القرن الثاني من حياتها، وما زال لديها في كأس الحياة بقية لا يعلمها سوى الله.

أخيراً... ماتَ المحامي المسكين دون أن يحقق حلمه بامتلاك البيت، ونُقِلَتْ العجوزُ إلى دارٍ للمسنين لرعايتها. وتولتْ زوجة المحامي دفع الأقساط بعد وفاة زوجها كيلا تخسرَ البيت حسب الاتفاق.

واستمرتْ لسنواتٍ بعد وفاة زوجها تدفع لأم سعيد ما اتفق عليه، ومع العلم أنَّ أم سعيد مقيمة في دار الرعاية، ولكن هذا لا يعفي من تنفيذ الاتفاق المبرم بين المحامي وأم سعيد...

وأخيراً نودي على وفاة أكبر معمرة في المدينة...أُم سعيد. فتحوا وصيتها بعد وفاتها، وجدوا بين متعلقاتها الشيك... وقد كتبت على ظهره... يؤول هذا الشيك إلى ذلك الغبي صاحبه! ثم ورقة صغيرة كتب فيها: وهل هناك عاقل يعلم من سيموت أولاً؟؟! مات جدّي وكان أكبر معمر في المدينة، رحمك الله يا رجل سامحني... والأعمار بيد الله.

****

الطمعُ ضَرَّ ما نفعْ.

من يزرع

الأحلام يحصد

الأوهام.

" الساحرُ والغبيّ "

خرجَ الشابُ من بيتهِ واليأسُ يكادُ أنْ يقتله، لقد انهار المسكين، بعد أن أودى به الفشل والفقر إلى العوزِ وحاجةِ الناس، جلسَ على الشرفة يفكر بما آلَ إليه حالهُ من ذُلٍّ وإهانةٍ.

لم يجدْ حلاً لحالته سوى الانتحار والخلاص من الحياة البائسة التي يعيشها، فقرر أنْ يضعَ حداً لحياتهِ، أما كيف فهذا ما أخذ يخطط له، وأخيراً استقر رأيه على الانتحار شنقاً.

تناولَ المسكين قطعةَ حبلٍ من مخزن بيته، ثم توجه نحو الغابة القريبة، وعزم على تنفيذ فكرته.

وقف تحت شجرةٍ أغصانها عالية وجدها مناسبة لتنفيذ فكرته. تسلّقَ الشجرة وربط الحبل بغصنٍ قويٍ متينٍ، ثم نزل منها ودحرج حجراً كبيراً وضعه تحت الأنشوطة التي صنعها، ثم رفع حجراً آخر أصغر منه فوقه، وازنَ بين الحجر الذي يقف عليه وبين الأنشوطة التي في نهاية

الحبل. وحينما وجد بأنَّ الأمر سيتم كما خطط له، وضع الحبل حول عنقه.

لم يبقَ عليه لتنفيذ خطته سوى أن يدفع الحجر الذي يقف عليه برجله وينتهي الأمر...

فجأة برز له عجوز طاعن في السن... (عراف أو ساحر).

ناداه العراف بهدوء، ربما كيلا يفزعه ويقع الحجر الذي يقف عليه فيشنق نفسه ويموت:

_ لماذا يا بني؟ أمِن أجل المال تقتل نفسك؟ لا يفعل هذا سوى الغبيّ! هل جهدت لكسب رزقك ورزق عيالك تدبيراً وعملاً؟

_ ليس عندي عيالٌ ولم أتزوج بعد، ولم أحصل على فرصة تغنيني لأصبح ثرياً.

_ وهل تظن أن الله يرمي النقود للبشر في الشوارع؟ لو كان الرزق يأتي هكذا لتوقفت أعمال البشر وماتت جوعاً.

_ كيف هذا يا شيخي؟ أرى العكس تماماً... كانت الناس ارتاحت من الشقاء والتعب.

_ من البداية قلتُ لكَ أيُّها الغبي ولم أخطىء، ومن الذي سيعمل ليطعمك أنت وهم؟ ألم تسأل نفسك هذا السؤال؟!!

على أيةِ حال ارفع الحبل عن رقبتك الآن، وسأعطيك اليوم الفرصة لتأخذ من المال ما تشاء، وسأجعل رزقك هنا أمامك في هذه الغابة.

_ وماذا عليّ أن أفعل؟

_ لا شيء... فقط سِرْ في هذا الطريق إلى داخل الغابة، ستصادف فيها رزقاً يغنيك ويسعدك.

سار الشاب مسافةً قليلةً، التقى رجلاً عاجزاً ينام في ظلِّ شجرةٍ، يبدو عليه بأنَّه يصارعُ الموتَ ناداه الرجلُ حين رآه:

_ ساعدني يا بني، أنا أعيش هنا وحيداً، وماعليك سوى أن تحملني في الصباح إلى تحت هذه الشجرة، ثم تعيدني عند الغروب إلى ذلك الكوخ الذي تراه، وعندما أموت ستجد في جيبي ورقة تدلك على مكان أموالي، تأخذها فتغنيك إلى الأبد.

تردد قليلاً، لكنَّه تركه وهو يقول لنفسه:

لقد قال لي الساحر أنَّ رزقي أمامي. أخشى أنْ يضيعَ.

وعلى هذا تابع سيره، ووصل إلى رجلٍ يحفرُ بمعوله، ويلهث من شدة التعب ناداه الرجلُ:

تعالَ يا ولدي، ساعدني لقد دفنتُ أيام شبابي، في هذا المكان كنزٌ كبيرٌ؛ ساعدني على إخراجه وسأعطيكَ نصفه، فإنَّه يغنيك.

فكّرالشاب قليلاً، لكنّه قال في نفسه أيضاً: وماذا لو لم نعثر عليه؟! سيضيع يومي دون فائدة... رزقي أمامي هكذا قال لي الساحر...

تابعَ سيره، وبعد قليل وجد حطاباً يقطعُ شجرةً كبيرةً.

ناداه الحطابُ: أيّها الشاب ساعدني... لقد جمعتُ ثروةً كبيرةً من عملي هذا، ولا يوجد من يرثني. هيّا ساعدني وتعيش معي وتتمتع بتلك الثروة في حياتي ومماتي. وليس هناك من يرثني سواك.

تردّدَ قليلاً وهو يقول في نفسه:

وهل كتب عليَّ أن أنتظرَ الموتَ لأحدِ هؤلاء حتى أرث وأصبح ثرياً؟ كلا فلأتابع سيري، عليَّ أن أجد رزقاً سهلاً وسريعاً.

تابع السير وهو يفكّر بما مرَّ به! ولم ينتبه لنفسه إلّا عندما وجد نفسه خارج الغابة من الناحية الأخرى، دون أن يعثر على ما يرضيه، فقال يحادث نفسه:

أنا لم أجد شيئاً مما وعدني به العراف العجوز.

وفطِنَ بأنَّ الرزق الموعود به، ربما كان المقصود عند أحد أولئك الثلاثة الذين مرَّ بهم!

قفل عائداً إلى الغابة حيث كان الحطاب يُقطّع الحطب، لكنّه لم يجد أثراً له ولا لحطبه.

هَبَّ مسرعاً إلى حيث كان الحفّار يحفرُ الأرضَ، أيضاً لم يجده.

عادَ إلى الشيخ المريض أيضاً، وجد أنَّه قد اختفى.

رجع الشاب واليأس يقتله إلى حيث ربط الحبل كي ينتحر. وجد العراف ما زال ينتظره.

سأله العراف ساخراً: أراكَ عدتَ فارغاً يا بني؟!

قال الشاب: لم أجد شيئاً مما وعدتني به.

صاحَ العرافُ منادياً أحد رجاله:

هيّا اربط هذا الحبل في رقبة هذا الغبيّ وقده إلى بيته، أيظن بأنَّ جمع الرزق سهل؟!! الإنسان بلا طموح يموت حسرة وجوعاً.

شَدَّ مساعدُ الساحرِ الحبلَ على رقبة الشاب، وعندما أحس بالألم الشديد، صرخَ متأثراً بألمه! أيقظته أمه وهي تصيح: هيّا لقد تأخرتَ بالنوم!

نظر حوله وقال لها: ياله من حلم جميل لرجل غبي.

****

إذا كانت النفوس كباراً

تعبت في مرادها

الأجسام

المتنبي

" الهارب "

تسللَ إلى خيمةِ صديقه فوجده يُلملِم أغراضه... سأله:

_ إلى أين يا صديقي؟ هل ستهرب؟!

_ كلا... جاء نقلي من هذه الصحراء اللعينة.

_ حظك جيد، ولكن إلى أيّ مكان؟

_لا فرق، أين شاؤوا... المهم ترك هذه الصحراء، بحرِّها، وشرّها.

_ أما أنا فسأهرب هذه الليلة.

_ إنّها مخاطرةٌ كبيرةٌ... لن يمنعك أحد، لكن عليك الانتباه... وأشار بيده... سِرْ بذلك الاتجاه، ولا تحِدْ عنه... ستحتاج إلى مسيرة يومين تقريباً، بعدها ستلتقي بطريقٍ للقوافل.

_ أعلمُ بأنَّ الصحراء مرعبة وتخيف الهاربين، ولكنّني سأهرب على أيّة حال.

_ ليس لدي سوى خف جمل كنت ألوكه لأسكتَ جوعي به هذه الأيام، قبل وصول قافلة التموين، وموعدها اليوم

على ما يقولون... سأهديك إياه لعله ينفعك.
ولكن لمَ لا تنتظر؟! لعلّهم غداً يوزعون علينا حصصنا من التموين، فأعطيكَ من حصتي فوق حصتك، ربما تنفعك...
_ كلا لن أنتظر... بل استلم حصتي أنت وخذها... لقد حسمتُ أمري وانتهى الموضوع.

سأهربُ من هذا المعسكر اللعين.
كان هذا الحديث يدور بين شابين في معسكرٍ عثماني في إحدى الصحاري الإفريقية، في القرن التاسع العشر، بين شابين من بلاد الشام قدر لهما أن تكون خدمتهما قسراً هناك.

ما أن انتصف الليل على الشاب حتى تسلل هارباً دون أن يلحظه أحد.
ارتفعت على الهارب شمس الصحراء اللاهبة، وأصبح الآن كلّ همه الوصول إلى أيّ مكان يلوذ به من حرارتها اللاذعة، بعد نجاته في الخروج هارباً، فلا طعامٌ يحمله ولا زادٌ يقتاتُ به سوى بعض الماء وحفنة من الزبيب، والتمر، وخف الجمل الذي أهداه إليه صاحبه، وَقد وَدّهُ به... لم

يكن هناك من يردع أحداً عن الهرب، لذلك لم يكن يخاف من المطاردة، فهذه الصحراء المترامية الأطراف كفيلة بمنع أي جندي من المغامرة، لِبُعدها وقفرها، لكن بطلنا غامر... فعلَ ونجحَ.

ما أن ارتفعت شمس الضحى حتى كان قد ابتعد عن النظر مسافةً كافيةً، وهو يعلم أنَّ أحداً لن يهتم لهروبه... لذلك لن يخشَ مطاردتهم... تابع السير تحت الشمس الحارقة لساعات طويلة.

فجأة... وجد أمامه جثة رجلٍ ملقىً على بطنه يتأبط صاحبها الرمال الحارقة!
اقتربَ منه... نظرَ إليه... قَلّبَهُ... وجد أنَّ الروح خرجت منه منذ فترة ليست بعيدة، وما زال جسده طرياً... فكّرَ، تفحصه جيداً. يبدو من ثيابه بأنَّه من معسكرهم. وقد أصابته طعنة خنجرٍ اخترقت ظهره فأودتْ بحياته.
حفر الرمال الناعمة بيديه ليدفنه، فتشه قبل ذلك، ثم وضع كافة حاجياته التي وجدها معه جانباً.

نزعَ عنه ثيابه وحِذاءه، ثم واراه التراب... وضع جميع أشيائه في قطعة قماش، وحملها معه ليفيد منها.

وقُبيلَ العصر بقليلٍ تكرّرَ المشهد... عثر على جثة أخرى قُتل صاحبها بالطريقة نفسها، كرر تصرفه هنا كما فعل مع القتيل الذي قبله، مستغرباً مما رآه من تلك الجرائم.

إلا أنّه تابع سيره مع أنَّ التعبَ قد أعياه. كانت حرارة الشمس قد خَفَّت كثيراً عندما حان العصر... تمدّد على الأرض ليرتاح على الرمال، وما زالت تحتفظ ببعض حرارتها، استيقظ الهارب قبيل منتصف الليل وكان كغيره من الناس في تلك الأيام... لا تنقصه معرفة الزمن من خلال النظر إلى النجوم في السماء.

لملم أغراضه، ولاكَ خُفَّ الجمل قليلاً لعلّه يسكت شيئاً من جوع بطنه... فطن إلى أن حاجيات القتلى ربما تحوي بعض الطعام. تذكر بأنّه لم يجد مع القتيلين ماءً، ولم يكن بحاجة للماء فمعه مايكفيه، وربما كان القاتل سلبه منهما قبله.

ولما كان الظلام حالكاً، لذلك أجلَ البحث في المتاع حتى الصباح... صبر على جوعه حتى طلوع الفجر.

عندها خفف مما لا يلزم وما يعيق سيره بعد أن وجد في متعلقاتهم عدة قبضات من الزبيب، والتين المجفف... ما

أن بزغ فجره المنتظر، حتى انطلق في الاتجاه نفسه الذي دلّه صاحبه إليه.

لم يكن ينقصه الماء كما قلنا فالقربة التي أحضرها معه تكفيه يوماً آخراً، ومع ذلك كان لا بد من الاقتصاد في الماء.

سار وقد بدأت الشمس تلسع ظهره، لكنَّ الريح من خلفه كانت تدفع به إلى الأمام وتساعده على السير، وكان هذا لحسن حظه... بقي سائراً حتى منتصفِ النهار تقريباً. في البعيدِ لاحتْ له شجيرة صحراوية منفردة. غَذّ السير إليها لعلَّهُ يستظلُّ بها، وقد أعياه التعب والسير على الرمال الحارقة.

وكانت المفاجأة الكبرى حين اقترب، لقد شاهد رجلاً ممدداً في ظلها. اقترب منه بحذرٍ شديدٍ، وهو يتساءل عما أوصل هذا أيضاً إلى هنا؟ اقترب نحوه، فلاحظ أنّه يطوّقُ حقيبةً من الجلد إلى صدره، ويبدو كأنَّه ميتٌ أو فاقدٌ للوعي! رفع الحقيبة من بين يديه، فأعجزه وزنها الكبير، تفحّصهُ جيداً فبدا له أنَّ الرجلَ يعاني من تعبٍ شديدٍ، وربما نتج ذلك عن ضربة شمس. لحظات وتململ الرجل قليلاً ثم فتح عينيه... سقاه بعض الماء وسأله عمّا أوصله

إلى هنا.
فقد كان الرجل في حالةٍ يُرثى لها، ومع ذلك فهم بصعوبة من حديثه المتقطع وهو يتأتئ:
إنَّه واثنين من رفاقه سرقوا من المعسكر ما فيه من أموال ورواتب، وطبعاً كانت العملةُ آنذاك ذهبيةً وفضيةً فقط وتزن الكمية الكبيرة الكثير.

عرفَ أيضاً منه بأنَّهم اختلفوا معاً في الطريق بينما كانوا يتناوبون على حمل هذه الحقيبة ريثما يصلون إلى مكانٍ آمنٍ يقتسمون ما فيها. لكنَّ الرجلَ الأول الذي وجده الهارب مقتولاً أصرَّ عليهم أن يقتسموا الأموال على الفور، وقال لهم:

إنَّه سيذهب في إتجاه آخر غير وجهتهم، وبسبب مشادة بيني وبينه اضطررتُ إلى قتله.عندها تابعنا السير، وبعد مسيرة عدة ساعات حاول رفيقي الثاني أنْ يغدرَ بي، لكنّني تغلبتُ عليه وقتلته .
لم ترقْ للهارب القصة كثيراً، ووجدَ فيها الكثير مما يريب فالطعنات في القتيلين تكْمن في الظهر. لذلك توقع غدْره وحرص ألّا يسير أمامه بل بجانبه... بقيا معاً عدة ساعات.

تماثل الرجل للشفاء إلى حدٍّ ما، وحمل الهارب له حقيبته الجلدية.

الصحراء ما تزال في حرّها ولهيبها، وإن كانت الشمس قد بدأت تميل إلى المغيب، إلا أنّهما تابعا المسير حتى إلى ما بعد منتصف الليل، وفي البعيد تراءت لهما أضواء باهتة جداً

استبشرا بها خيراً. ولم يكن لدى أحد منهما خبرة في تلك المناطق، ولكنَّهما يعرفان بأنَّ طريقاً للقوافل، لا بد أن يلتقيا به.

قررا الاستراحة بضع ساعات، ثم تابعا السير. بدا شك الهارب برفيقه يظهر للعيان، لذلك حرص على البقاء حذراً وصاحياً.

ناما بعد غروب الشمس بقليل... شعر الهارب بأنَّ شكّهُ في محلّه، فقد انتبه لحركةٍ مريبةٍ من رفيقه، عندما لكزه اللص بعصاه بلطفٍ، ففهم من تلك الحركة أنَّه يحاول التأكد من ثقل نومه، فأخذَ الهارب يتظاهر بالنوم. بعد أن فهم نيته! تظاهر حينها بأنَّه غارقٌ في النوم، وفجأة لمحه يرفع خنجره ويهوي به عليه، إلا أنّه كان فطناً. على الفور

تدحرج بسرعة البرق جانباً، وانقض على الرجل الذي كان قد هوى بجسده على الرمل بعدما فقدَ توازنه بسبب ضربته الخائبة، وغاص خنجره في التربة... لم تمضِ دقائق على معركتهما إلا وكان موت الرجل سيد الموقف، وأصبح كلّ شيء ملكاً للهارب.

قامَ بدفنِ اللصِ في مكانه، وخففَ مما لاحاجة له به، ثم تابع سيره بما استطاع، حتى تفاجأ برؤية قافلة من الجمال تقترب وتتجه إلى القرية التي رأى بصيص أنوارها في الليلة السابقة، فانضمَ إلى القافلة حتى دخلت القرية، وبوصوله معها إلى القرية تركَ القافلة، وابتاع جملاً ودابّةً، وتزود بحاجته من المؤونة، ثم تابع سيره إلى غايته.

****

إدارة النزاعات

تتطلب حكمة

وذكاء

" بداهة وذكاء "

طافَ رجلٌ في السوقِ، دلت على كبريائه هيئةٌ حسنةٌ، وزهوٌ في وجههِ بما لا يعلم به إلّا الله، ظهرَ كلّ هذا من خلال حركاته المتأنقة!

مرتْ به امرأةٌ تبيعُ السمنَ... سألها:

- ماذا تبيعين يا صبية؟

- أبيع السمن.

- أرنيه إن كان جيداً.

فتحت الصبية قربة السمن ليتذوقها... أريق منها بعض السمن على ثوبه بغير قصد... غضب الرجل غضباً شديداً، وقال لها :

- لن أبرح المكان حتى تدفعي لي ثمن الثوب.

أخذت المرأة تستعطفه:

- ارحمني يا سيدي... أنا امرأة مسكينة ...

- ثمن الثوب ألف درهم... أريدها حالاً.

- أنا امرأةٌ فقيرةٌ فمن أين لي الألف درهم؟!

- لا شأنَ لي بك.

- أرجوكَ لا تفضحني في السوق، فنحن أمام الناس والكلّ ينظر إلينا.
لكنّه أخذ يهددها ويتوعدها... أقبل عليهما شابٌ ممن كانوا في السوق فقال لها :
-ما شأنكِ مع الرجل يا امرأة؟
قصتْ عليه الخبر، فقال الشاب موجهاً كلامه إلى خصمها:
أنا أشتريه بألفِ درهم.

ناول الرجل المبلغ الذي عدَّه، ثم أراد أن يبرح المكان. فقال له الشاب:
_ إلى أين؟ أعطني حقي.
_ ما هو حقك؟ قال له:
_هل أخذت ثمن الثوب كاملاً؟
_ نعم أخذت ثمنه.
_ إذاً أعطني الثوب؟
_ ولماذا؟!
_ قد أعطيناك ثمنه، فأعطنا حلالنا.
_ وهل أسير عارياً؟!
_ لا شأن لنا بك.

_ وإن لم أعطك الثوب؟

قال:

_ نبيعك إياه.

_ بالألف درهم؟

كلا، بل الثمن الذي نطلبه؟!

فقال الرجل:

لقد أخذت منكم ألف درهم، ها هي ما زالت بيدي.

قال الشاب:

_ لا شأن لنا بما دفعت، نريد ثمناً للثوب ألفي درهم أو أعطنا ثوبنا.

_ هذا كثير.

_ إذن أعطنا ثوبنا.

_ أتريد أن تفضحني؟!

_ أما كنت تريد أن تفضح المرأة المسكينة؟!

_ ولكن هذا ظلم.

_ عجباً... الآن عرفت الظلم!

خجل الرجل المتكبر من صنيعه ودفع المال للشاب.

استرد الشاب الألف درهم التي دفعها، وقدم الألف الثانية للمرأة المسكينة...

إدارة النزاعات تتطلب حكمة وتضحية... ولا كبير أمام الحق.

****

السكون يسبق

العاصفة

والاحتياط واجب

" صفقةٌ خاسرةٌ "

لم يخرجْ صراخ المنكوبة من بين جدران الشقة، الرعبُ وجفافُ لعابِها والتصاقُ لسانها بسقفِ حلقها جعلوا من صوتها لا يتعدى حشرجات مبهمة، وهي تستنجدُ بمن ينقذها من براثن ذلك المتوحش، الذي جاءت به الصدفة البحتة إلى الشقة التي كان فيها قبل ساعات، ثم خرج منها ليقضي عطلة نهاية الأسبوع في قريته.

لم تنفع توسلات المسكينة سامية وهذا اسم بطلة قصتنا، لم تنقذها توسلاتها من همجية هذا الوحش في صورة إنسان، وهو يحاول الاعتداء على شرفها، ليس للمسكينة ماضٍ أو سابقة تشين أخلاقها، وما كان لها موعدٌ معه أو حتى مع آخر يعلم به ذلك فاقد الضمير يستند عليه بفعلته القذرة هذه الآن، فهي الفتاة الشريفة العفيفة التي يضرب بها المثل.

واحسرتاه... دقائق قليلة وانتهى حلم خمسة وعشرين عاماً من مسيرتها، بما أراد الله من أمَتهِ الصالحة المؤمنة. فقدتْ سامية أعزَّ ما تملك الآن... إنَّها عذريتها التي

سُفكتْ مع من رمته رياح الشهوة...
لم يستطعْ سامي مقاومة رغبته أمام ذلك الجسد العاري الذي تفاجأ به في شقته التي يشاركه فيها أخوها أحمد!!
الطالبان أحمد وأخته سميحة يدرسان في جامعة واحدة، لكن كلّ واحد منهما يدرس في اختصاص مختلف عن الآخر، وعلى هذا كلّ واحد منهما في كلية مختلفة، ولايسكنان معاً.
سامية تسكن مع زميلاتها في سكن الجامعة، وأحمد يسكن مع صديقه سامي في شقة صغيرة، خارج المدينة الجامعية.
ولكنّه يتقاسم تلك الشقة مع صديقه بغية التوفير في المصاريف كأجرة الشقة وغيرها.
صحيح أنَّ هذا الشاب... سامي ليس في الفرع الدراسي نفسه، إلّا أنَّ قريتهُ قريبة من قريةِ أحمد، ويدرسان معاً في الجامعة نفسها، ولا تجمع بينهما صداقة سابقة، إنّما معرفة عادية، لا تتعدى مجاورتهما أحياناً في مقعد الحافلة العاملة على خط قريتيهما، وأحياناً يترافقان معاً فيها، فهي واسطة النقل الوحيدة لتلك الجهة من ريف المدينة.

وبما أنَّ اليوم، يوم الحادثة التي بدأنا بها قصتنا، هو عطلة نهاية الأسبوع، فقد كلّفَ أحمد أُخته سامية، ورجاها أن تقوم بتنظيف غرفته في الشقة، وبعد رجاءٍ ودعاءٍ وافقتْ معه وأخذت منه مفتاح الشقة، وبالتالي مفتاح غرفته الخاصة، لأنَّه سيذهب إلى القرية ليحضر مؤونتهما الشهرية كالعادة، ويقتسم معها ما يجود به الأهل عليهما. خاصة وأنَّه علم بأنَّ سامي سيذهب أيضاً إلى القرية ليقضي يومي العطلة عند أهله مثله كي يجلب مؤونته أيضاً.

وكان قد قابله قبل ساعاتٍ، وودَ مرافقته كالعادة، كما في أكثر الأحيان، وعلى هذا سافر الاثنان معاً بالحافلة نفسها. قرية صديقه سامي قرب قريته، وعادة يسافران معاً، ويركبان في واسطة النقل نفسها...

نزلَ سامي في قريته، وتابع أحمد مع الحافلة إلى قريته التي تقع على بعد بضعة كيلو مترات من قريته.

قرعَ سامي باب منزل أهله، لم يسمع جواباً! عاد إلى الشارع وسأل أحد الأطفال من جيرانه، رآه يلعب مع رفاقه أمام بيتهم، أخبره بأن أهله ذهبوا قبل ساعتين إلى المدينة، ولا يعرف لماذا! فتح سامي الباب الخارجي وجلس

في بهو الدار يفكر فيما سيفعله، وهو يعاني الكثير من القلق الشديد، وأخذ يتساءل:

تُرى ما الذي جعل أهلي يذهبون إلى المدينة؟!! وهم يعلمون أنّني سآتي إلى هنا كالعادة بعد ظهر كلِّ يوم خميس، لأقضي يومي العطلة معهم، وأساعدَ والدي في الأعمال الزراعية في أرضنا!

جلس يرتاح قليلاً ويشغل تفكيره سبب ذهاب أهله إلى المدينة، لكنّه لم يجد تفسيراً مقنعاً، لذلك قرر العودة إلى المدينة لمعرفة سر ذهابهم المفاجئ.

عاد إلى موقف الحافلة ينتظر عودتها من جولتها في القرى المجاورة، لتعود في رحلة جديدة إلى المدينة، خلال جلوسه في الحافلة فكر في أن يبدأ البحث من شقته، لعلهم ذهبوا إلى هناك، وأخذ يتساءل: تُرى كيف سيدخلون إليها وليس لديهم مفتاح لها؟!! لم يستطع أن يحسم الأمر فأجل التفكير لحين وصوله إلى شقته أولاً.

وهناك على باب الشقة وجد قصاصة ورق من أخيه، يخبره بأنَّ والده أصيب بوعكةٍ صحيةٍ نقلوه على إثرها إلى المستشفى.

على الفور لحق بهم وهو يعلم بأنَّ والده يعاني من بعض

أمراض الكهولة، من سكري وضغط... وهي ليست المرة الأولى التي يسعف فيها!

جلس يلوم نفسه وصديقه أحمد الذي عجل عليه بالسفر إلى القرية، وكان يود هو أن يبقى إلى الرحلة القادمة، فاليوم خميس والرحلات إلى القرية متواصلة.

في المستشفى قيل له: أنَّ والده تلقى العلاج وعاد إلى القرية قبل قليل، هو والدته، فقد كانت نوبة قلبية بسيطة مرت بسلام.

أراد اللحاق بهم والعودة مباشرة إلى القرية، لكنَّه في اللحظة الأخيرة غيّرَ رأيه بعد أنْ اطمأنَ على حالة والده الصحية، لذلك قرر تأجيل عودته إلى الرحلة الأخيرة، فالوقت ما زال فيه متسع للعودة إلى القرية.

دخلَ إلى غرفته ليرتاح من التعب المتواصل الذي ألمَّ به في رحلاته المتتالية، من المدينة إلى القرية ثم العودة إلى المدينة ثم المستشفى...

نعود إلى الوراء قليلاً...

حارت سميحة أخت أحمد بما ستفعل بطلبه، أي تنظيف الشقة.

لقد أكَّدَ لها أحمد بأنَّ سامي الذي يشاركه السكن حجز

معه في الرحلة نفسها، وسيذهبان معاً إلى قريتيهما بعد ساعتين تقريباً، ترددت هل تؤجل هذا العمل إلى يوم الغد أم تذهب الآن وتريح نفسها منه؟ وعدت أخاها بأن تنجز العمل في أي وقت اليوم أو غداً، لكنّها أرادت أن ترتاح منه اليوم، لذلك ذهبت إلى الشقة وبدأت بتنفيذه على الفور.

عملت سميحة لأكثر من ساعة في تنظيف المطبخ وجلي الأواني وتنظيف غرفة أخيها والصالة دون توقف، وفي نيتها الانتهاء من هذا العمل قبيل الغروب.

أخيراً أنهت عملها وهي تقول ساخرة:

بيت العزابي أشبه (بصندوق جدتي)، فيه كلّ شيء وتحتاج لتقليب كلّ شيء إذا أردت منه شيئاً.

أنهت سميحة عملها قبل الموعد الذي حددته لنفسها، فوجدت بأنَّ لديها متسعاً من الوقت لإزالة ما علق بها وبشعرها من غبار، وتسوية ما تشوه من منظرها ومكياجها، خاصة وأنّها ستعود ماشية على قدميها، لذلك قررت الاستحمام في الشقة، كيف لا وهي تعلم أن أخاها وصديقه غادرا إلى قريتيهما منذ الصباح؟ ولن يعودا قبل بداية الدوام في الجامعة بعد يومين...

خرجتْ سميحة من الحمام تلتفُ بمنشفةٍ صغيرةٍ لم تجد أكبر منها نظيفة.

لم تلاحظ أو تعلم بوجود سامي في غرفته الخاصة، وأنّه كان قد دخل غرفته قبل حضورها بأكثر من ساعة، لكن لشدة تعبه نام وغفا داخل غرفته، ولم يحس بدخولها، ولا بفتح الباب الخارجي وغلقه.

خرجت سميحة من الحمام لتجفف نفسها وتسوي شعرها أمام المرآة الوحيدة في الشقة فوق المغسلة بمواجهة الحمام، وتصادف في اللحظة نفسها خروج سامي من الغرفة، مع خروجها من باب الحمام شبه عارية، ورآها في تلك الحالة، ولم يكن بينهما أكثر من متر واحد. صعقتها المفاجأة وجفّ ريقها، وبدأت ترتجف وانتابتها موجة من الهذيان الصامت.

ثيابها على بعد خطوتين منها... كيف ستطالها وهي في هذه الحال؟! حاولت العودة إلى الحمام ولكن زلقت رجلها، وعطلتها، أما هو فقدَ عقله أمام هذا المنظر.

وصل إليها قبل أن تستعيد توازنها، وكانت الفرصة الذهبية لينفذ فعلته، حاولت ستر نفسها بيديها، ولكن لم تستطع لقد فرض عليها أن تدافع عن نفسها، مما

تكشف تماماً من جسدها، أحنت رأسها إلى الأمام فغطى شعرها القليل من صدرها، ولكن... أما سامي وقف مذهولاً من هول المفاجأة ولم يستعد وعيه أبداً من هول المنظر، وقال بصوت أقرب إلى الهمس: أحورية أنت؟ مما وعد الله مجاهديه بهن! لم يستطع أن يبتلع لعابه من الرغبة التي استحكمت عقله وأفاضت غريزته، أمام ذلك الجسد المرتجف، الخائف. لم يستجب سامي إلى توسلاتها، ولا إلى صراخها المبحوح ولا إلى الجسد الأشبه بالميت بين يديه.

نُحِرَ العفاف، وقُتِلَتْ الطهارة! استيقظت سامية في حالٍ جديد، ولم يعد من الممكن العودة بالزمن إلى الدقائق التي مضت.

أخيراً ذهبت الروعة، واستنار فكرها لأمرٍ وقعَ، لكن بشيءٍ قررته، كانت تسمع دوي كلماته التي تصنع الهدوء بها، وتستمع إلى اقتراحه بهدوءٍ شديدٍ، ولكن الدموع كانت تفضح مصيبتها وأسى قلبها، أما هو، وبعد أن شعر بالندم الشديد، بدأ يحاول استرضاءها بتبرير فعلته لها ولنفسه الممزقة.

أخيراً نطق وتكلم متعلثماً، وهو يتمتم لضحيته:

من أنتِ؟ كيف دخلتِ؟ لم ترد بل بقيتْ تتنهنه وتذرفُ الدموع من عينيها، عاد وسألها بعد أن كان قد تكشف له وجهها، ألستِ سميحة؟ وأخذ يضربُ رأسه بيديه ويعتذر بكلام لم يفهم منه سوى الندم، سكت قليلاً ثم قال: هيّا ارتدي ثيابك ولنذهب إلى المأذون الآن.

لم ترد، بل كفكفت دموعها وأظهرت له بأنّها وافقت على اقتراحه، دخلتْ سميحة إلى المطبخ كما هي، وحمل هو المنشفة التي كانت تضعها على كتفيها قبل الاعتداء عليها، مشتْ ولم تسترْ من جسمها شيئاً أمامه، ألم تكتمل جريمته؟ ها هي تسير عارية أمامه، فقط يكسوها ذلها ومصيبتها.

تبعها وقد ظنَّ أنّها وافقت على طلبه...

استدارتْ، وبسرعة البرق كانت السكين تخترق قلب الحلم، ضحكت وهو ينظر إليها والدماء تتفجر من صدره.

ارتدتْ ملابسها بهدوءٍ شديدٍ، وكأنَّها تجهز نفسها لرحلة... إلى عالمٍ جديدٍ، إنَّها في قمة السعادة الآن، عادتْ إلى الصالة أيضاً تتصنع الهدوء بعدما لبست ثيابها... فتحت حقيبة يدها وأكملت مكياجها... رشت زجاجة العطر كاملة على وجهها وثيابها، ثم كتبت بضع كلمات... خرجت

بعد ذلك إلى الشرفة بأبهى زينتها.
أكملت النطق بالشهادة الأولى على الشرفة، والثانية وهي في الهواء قبل أن يرتطم جسدها برصيف الشارع...
ويحكي للجميع لحظةً غادرةً، وصفقةً لم تكتمل!

****

دعاء الأم مستجابٌ

بإذن الله

وبالوالدين إحسانا

صدق الله العظيم

" سامحيني يا أُمي "

إن أكثر ما أثار استغراب الرجل المار في حيٍّ لم يسبق له المرور فيه من قبل، هو خروج جنازة محمولة على أكتاف أربعة رجال فقط من أحد المنازل، فقال في نفسه: سأنتظر خروج المشيعين ربما ما زالوا في الداخل، بهذا أكسب أجرين معاً... أجر مرافقة الجنازة وأجر الصلاة عليها، وقد يكتب لي أجر مساعدتهم على الدفن إن استطعت.

انتظر الرجل... لم يخرج أحد... لم يطل انتظاره طويلاً، بعد دقائق فقط خرجت امرأة مسرعة... أغلقت بابها على عجل، ثم هرولت مسرعة تحاول اللحاق بالجنازة.

هنا تبسم الرجل في غير موضع الابتسام... جنازة دون مشيعين؟!! امرأة تخرج خلف الجنازة من البيت نفسه لا تبدو عليها مظاهر الحزن أو الأسى؟! ترى أهناك في الأمر ما يريب؟ بقي الرجل واقفاً ونيته اللحاق بالجنازة، ثم انطلق، وتعمد أن يسبق المرأة... حتى وصل إلى حاملي

النعش، فسار معهم يساعدهم على حملها، وهو يفكر بما يحدث أمامه، ويتساءل:

هل وراء الأمر جريمة؟ هل يحملون جثة وهمية بحجة الميت؟ ماذا يحوي النعش؟

المهم في الأمر... وصل الجميع... ساعدهم... صلى الميت معهم، ووضع بيده قبضة من تراب على وجه الميت... عندها تأكد له أنَّ الأمر حقيقة لا لبس فيها.

سرق نظرة عجولة من وجه المرأة التي تقف بعيداً عنهم... لا جديد أبداً... لا دموع في عينيها ولا حزن في وجهها، ولا شيء يوحي بما يجب أن يكون في مثل هذا الموقف...

انتهى الجميع من عملهم تقدمت المرأة من الرجال الأربعة... ابتعد وهو لم يفهم شيئاً مما دار أو يدور بينهم!

خرج الجميع وسارت المرأة في الاتجاه نفسه الذي جاءت منه مع الجنازة... وقف لحظة ثم قرر اللحاق بالمرأة... ما أن دخلت من باب بيتها حتى قرع بابها... يريد أن يشبع فضوله بمعرفة ما يحدث...

قال لها:

_ سيدتي اعذري فضولي... رأيت شيئاً غريباً يحدث مع جنازتكم!

_ نعم أعلم، وهو المطلوب...

_ هل لي بأن أعرف؟

_ نعم، الجنازة جنازة ابني وحيدي.

_ يا إلهي! وحيدك... ابنك... لا حزن... لا عزاء... لا مشيعين!

_ نعم، سأروي لك الحكاية ولن أبخل بإشباع فضولك...

_ تفضلي وأكون شاكراً لكِ، لقد ظننتُ أن وراء الأمر جريمة تدفن!

_ هذا الميت كما قلت لك، إنَّه ولدي وحيدي يتيم الأب، مات والده قهراً منه وغضباً عليه، لقد اتخذ من الإجرام مهنة والنصب والاحتيال منهجاً، جاءني منذ أسابيع مصاباً، وهارباً مما لا أعرف، لكن ما لا أجهل هو أنَّه أصيب بالبعد عن شرع الله، نعم التجأ إلى أمه... إليَّ...

أمنته وأخفيته وهذا واجبي لمصاب أياً كان، فكيف إن كان ولدي؟!!...

لكن لم ينفع معه علاج جرح ولا دواء لداء... مثلما لم ينفع معه علاج عقل من قبل...

بالأمس فقط... لا بل مع فجر هذا اليوم قال لي:

_ اسمعي يا أماه... أرى الآن شبحاً لم يخفْنِي ولم يرعبني، لأنَّني أعلم بحالي وهو من جاء يقبض روحي... نعم أراه الآن ولا ترينه أنت، إنَّه يعدُّ الدقائق، ولن يمهلني.

_ أماه أطلب رضاكِ أنتِ... وأن تطلبي من ربي أن يسامحني، أما غفران والدي، فسأطلبه من ربٍّ رحيمٍ وجهتي إليه... كلّ ما أطلبه أن تسامحيني أولاً... ثم أرجوك ألّا ترسلي لأحد ينعيني ولا لمن يصليني، ولا من يذهب في جنازتي ليشيعني... الكلُّ يعرفني ويعرف سيرتي، ولا أحد سيقبل بمجرم... هذه وصيتي يا أماه.

قلت له:

_ سامحتك يا ولدي وأطلب من الله أن يسامحك أيضاً...

_ وكما ترى يا أخي... نفذتُ له وصيته حرفياً.

سأكمل لك:

_ ثم بعد دقائق قليلة رأيته يبتسم ونظراته معلقة بالسقف... ثم نظر إليَّ وقال:

_ أماه... لقد قُبل دعاؤك عند ربي... سامحني الله يا أماه... فقط لأنَّكِ أنت سامحتني، ودخل في نزعٍ قصيرٍ، بعدها أطبق عينيه...

ثم استأجرتُ له أولئك الرجال لحمل جنازته... وأنتَ تعلم الباقي.

****

جارك هو من أحسن إليك

وليس من تأسف لحالك

إنَّ بعضَ الظنِّ إثم

" عيد سعيد "

جلسَ الرجلُ وزوجته يتناقشان في أمر العيد الذي أصبح على الأبواب. بدأت الزوجة الحديث، وسيماء القرف الشديد تظهر على وجهها وهي تقول:

_ لماذا لم تتفحص اللحم الذي اشتريته جيداً؟

_ كيف سأنتبه له؟! لقد أُنزلت الذبيحة أمام عيني كغيرها من السيارة نفسها، ورأيت ختم وزارة الصحة عليها فاشتريت نصفها.

_ وتلك الديدان الناعمة التي تتعارك؟! في داخلها! أما تراها كيف تثقب اللحم وتخرج منه

_ لاحول ولا قوة إلا بالله... عجباً! أنت من تقولين بأنها تثقب اللحم، وما أدراني ماذا يوجد داخل اللحم؟

_ العيد غداً، كيف سنمضي أيام العيد دون لحم! وبماذا نطبخ للأولاد؟

_ وما المشكلة في ذلك، دعينا نعش حياة الفقراء ثلاثة أيام على الأقل في العمر.
_ لا... اذهب إلى التموين الآن، وأخبرهم بما فعل بك ذلك الغشاش.
_ اهدئي قليلاً... أنت تعلمين بأن المحلات أُقفلت منذ العصر، فكيف بدوائر الحكومة؟! فغداً أول أيام العيد.
ولولت، وبكت ولم تترك نبياً ولا ولياً إلا واستجارت به، تدعو على ذلك الجزار المجرم بنظرها.

صمت زوجها حتى هدأت قليلاً، ثم قالت:

_ ما رأيك؟ ماذا سنفعل الآن؟ يجب أن نطعم الأولاد.
_ بسيطة... جارنا يبيع الفروج المثلج، سأذهب إلى بيته علّه يذهب معي ويفتح محله الليلة لدقائق. أعتقد بأنّه لن يمانع عندما أخبره بالقصة.

_ لا بأس... اذهب وجرب ولا تتأخر.
روى الزوج لجاره قصته مع الجزار، ومطالب زوجته الغاضبة بالتفصيل، وأنّه بحاجة لأن يبتاع بعض الفراريج المثلجة، وأنّه جاء إليه وهو يعلم بأنَّ جميع الأسواق قد

أُغلقت. وإن كان بإمكانه أن يفتح محله لدقائق في مثل هذه الساعة.

لكنَّ الجار أجابه قائلاً:

_ أنت تعلم بأن الوقت تأخر الآن، وفتح محل في مثل هذه الساعة بين جميع المحلات المقفلة قد يثير الريبة، ويجرنا إلى مواقف سيئة مع الحراس.

ولكن انتظر قليلاً... ربما زوجتي تستغني عن شيء مما عندنا.

تأخر الجار داخل مطبخه، وأخيراً عاد معتذراً بأنّ الكمية الموجودة كلها تطبخ على النار مرة واحدة، ومن الصعب إنزالها.

عاد الرجل إلى بيته والحزن يملأ قلبه، وهو يتصارع مع نفسه، كيف سيقابل زوجته؟!

وما أن فتح زوجها الباب حتى استقبلته باسمة، بل ضاحكة وهي تقول:

نِعمَ الجار جارنا هذا، ولم تمهله حتى يخبرها برفضه مساعدتهم! بل قالت: انظر... هذا هو اللحم الجيد

الصالح، وليس كالذي اشتريته أنت. _ لقد أرسل لنا جارنا مع ولده نصف ذبيحة.

_ ماذا؟ أجارنا نفسه الذي أرسل لنا اللحم... ثم راح يسأل نفسه يحادث نفسه.

_ نعم... وما الغريب؟! أنت من طلبت منه شراء اللحم، ابنه قال ذلك...

_ نعم... نعم أنا طلبت منه دجاجاً، ومع ذلك رفض... يبدو أنَّه قال لكِ ذلك كيلا ترفضي استقبال الهدية.

جلس يفكر بحاله، وكيف غشه الجزار الأول، والفرق بينه وبين أسلوب جاره الراقي! وكيف سينتقم من الجزار بعد العيد مباشرة ويبحث عن الطريقة.

هل سيشتكيه إلى التموين؟ ويغلق له محله...الخ؟

ثم يفكر بانتقام أشد وأقسى... أن يدخل عليه ويضربه بهراوة غليظة يؤدبه بها. ويسترد قيمة مشترياته.

وأحياناً تخف ثورة غضبه عندما تهدأ أعصابه قليلاً، ويقول بأنّه سيشكوه إلى ربه فقط، طالباً العوض من الله.

ثم جلس يستعيد في ذاكرته الأحداث منذ دخل محل الجزار.

وأخذ يتتبع بفكره خطواته وما حدث منذ البداية، ويقول في نفسه: دخلت المحل... اخترت ذبيحة اقتطع لي الجزار نصفها بناء على طلبي، ثم دخل صديق لي وأخذ النصف الآخر للذبيحة نفسها.

وعلى الفور اتصل بصديقه يسأله عن صلاحية النصف الآخر الذي اشتراه.
أجابه صديقه بأن اللحم نظيف جداً! ولم يجد فيه ما يعيب.
فجأة قفز عن كرسيه وهو ينادي زوجته:
_ اسمعي... أتذكرين عندما اشترينا اللحم أين كنت أنت؟ فقالت له:

_ كنت أنتظرك في الخارج، خارج المحل.

_ أتدرين؟ أننا ظلمنا الجزار، وهو لا ذنب له!
أجابته ساخرة:

- نعم لقد زرعنا نحن الحشرات فيها، أي في نصف الذبيحة حصتنا.

_ نعم هذا ما حدث! ولكن ليس بالضبط.
استدارت عائدة لعملها وهي تقول:

_ هل رأفت بذلك الغشاش بدلاً من أن تنتقم منه، أو تشكوه.

_ كلا... عندما اشترينا اللحم أودعته عند صديقي بائع أكياس البلاستك، وكنت معي أليس كذلك؟ وأنت تعلمين حرارة فصل الصيف هذا. لقد وضعت كيس اللحم بين شوالات أكياس البلاستك ثم ذهبنا واشترينا باقي أغراض العيد أليس كذلك؟ وخلال ثلاث أو أربع ساعات بقي اللحم في ذلك الجو الحار! لذلك أصيب بالتلف وفسد ولا ذنب للجزار فيما حدث.

****

عندما يحل القضاء

لاينفع الحذر،

ولا الدعاء يمنع القدر.

" لعبة القدر "

استطاعَ الجنودُ المكلفونَ بحراسةِ المساجين، جرَّ الشابُ المحكوم عليه بالإعدام، لكن بعد مقاومة عنيفة منه، لم يستعملوا معه القسوة فهم يعرفون مسبقاً إلى أين يُساقْ.

رفضَ الدخولَ في السيارة التي ستنقله هو ورفاقه بشتى الوسائل، سواءَ الوعظية كالقدر وما أمر، والموت واحد...الخ، لأنّه يعلم أيضاً أنّه يُساق الآن إلى حتفهِ، حاولَ منعهم من إنزاله من سيارة السجن، هذا العسكري الشاب عدوّ بلدهم الذي حكم عليه بالإعدام مع مجموعة من الأسرى. في النهاية أخمدوا مقاومته، تمكنوا من إلحاقه بطابور زملائه المحكومين مثله.
توقفتْ سيارة السجن في الساحة المخصصة لتنفيذ أحكام الإعدام، لم يكن وحده، معه مجموعة كبيرة من المحكومين الآخرين مثله، ممن قُدّر لهم أن يُلقى القبض عليهم في عمليات قتالية مختلفة، أو شبكات تجسس

لصالح عدوهم... أخذ الحارس يدفع بالشاب للنزول من السيارة، كي يصطف مع زملائه. لم يكن هو أولهم، ولكنّه ليس آخرهم، وهذا ما كان يسعى إليه أن يكون الأخير، سيعيش دقائق زيادة عن زملائه....

لكن محاولاته المستميتة، بالتخاذل والتباطؤ في السير، وليس للهرب لأنّه يعلم استحالة ذلك، باءت بالفشل.

همه كما يبدو أن يطيل بقاؤه في هذه الدّنيا دقائق معدوداتٍ، كانت محاولة مستميتة منه كي يتراجع إلى نهاية الطابور، كسباً لبعض الوقت. نجح... بسبب أرجله التي تتلوى وتتعثر، فيكاد أن يسقط أرضاً مع كلِّ خطوة من خطواته المتهالكة، التي كان يخطوها...الحارس المكلف بحراسة مؤخرة الطابور يدفع بالمسكين ليدخله بين المحكومين المكبلين بالقيود مثله بين الحين والآخر...

الآن أصبح في نهاية الطابور، كما شاء... أحس المحكوم بنشوة باهتة للحظة فقط، لكن لم يغِبْ عن بالهِ ما سيحل به بعد قليل، إنّما أصبح يطمئن نفسه بأنّه لن يكون أولهم.

غدا المسكين يسمع دقات قلبه كأصوات الرصاص، الذي سيخترق صدره بعد قليلٍ، ويتساءل: هل سيلبسونه الكيس الأسود الذي سيتوّج رأسه، لقد سمع كثيراً بمن جيءَ بهم إلى هذا المكان ولم يعودوا... ازداد ارتجافه، وأصبح اصطكاك أسنانه من الرعب مسموعاً.

أحس الحارس الذي يسير خلفهم بألمه وخوفه... وراح يقول في نفسه: نحن في حالة حرب... ومن الممكن أن يكون مصيري كمصيره! فكان يدفعه بلطفٍ دون عنف مشفقاً على شبابه ومصيره المحتوم بعد قليلٍ مع أنّه عدوٌّ لبلده. لكنّه يدفعه إلى الأمام بين الحين والآخر...
وأخيراً وصل المحكومون إلى حيث الجدار، اصطفَ المساجين في طابور طويل، واحداً تلو الآخر. تحققت غاية الشاب، وصار الآن في آخر الطابور كما أراد... صاح بهم المأمور:

استديروا إلى الخلف... هيّا ليتجه أولكم إلى الجدار، الجدار الذي تنفذ فيه تلك الإعدامات، تبدل الآن موقع المسكين، وباتَ في طليعتهم. عندها فشلتْ محاولاته

بإطالة عمره الدقائق التي كان يحلم بها، أغمض عينيه رعباً بعد أن خارت قواه.

أحسَ المسكين بيد العسكري تضغط بقوة على قمة رأسه إلى الأسفل، ويأمره بالركوع... جفَ ريقه، هوى على الأرض، ساعده حارسه كي يعدّل من وضعيته. نظرَ المسكين حوله، رآى أنَّه صار أول من سينفذ فيه الحكم، حاول الصراخ دون جدوى، لقد احتبس الهواء في حلقه. ألبسوه كيساً أسود في رأسه، وهنت قواه، استسلم لقدره القاسي وهو شبه مغمى عليه، قُرئ الحكم عليه بسرعة ملفتة، فأمامهم مهمة طويلة، أكثر من عشرة محكومين. لقنه الشيخ الشهادتين... لم يبدُ أنّه سمع من ذلك شيئاً، ولا يعلم سوى الله، ما الذي كان يمر في رأسه الآن، هل استعاد في تلك اللحظة شريط حياته كاملاً؟ أم أنَّ أحاسيسه ماتت؟ لكنّه طلب من الحارس أن يرفع الكيس الأسودَ عن رأسه. لاطفه الحارس قائلاً: استغل تلك اللحظات بالصلاة والندم. لم يرد لقد تجمدت عواطفه... صمتٌ، وجومٌ، الجميع ينتظرُ! تقدمَ الضابطُ المسؤول نحوه... أمسك بالكيسِ المغلف رأسه وسحبه قائلاً: نفذوا طلب من لا يرغب بوضع الكيس على رأسه. تراجع

خطوات قليلة... نظر نحو فرقة التنفيذ... رفع يده إلى أعلى كتفه وأنزلها بقوة، وهو يصيح بالكلمة المعهودة: نار...

انتفض المسكين قليلاً، وكأنّ دهراً مرَّ به قبل أن ترنَّ في أذنيه الكلمة التي أطاحت بصوابه... عندما سمع الصوت عالياً يصيح (نار) ورافقتها صرخة مدوّية تصيح في الوقت نفسه: قفْ... قفْ... ولكن سبق السيف العذل.

السهم إذا انطلق لا يرد أبداً.
ذهبتْ الصرخةُ المدوية: قف... قف، وتتمة الجملة: أوقفوا التنفيذ في آذان رفاقه الباقين!
وهي اللحظة نفسها التي هوى فيها على الأرض.
تابعَ القادمُ الملهوفُ الصياحَ بأعلى صوته: قفوا... قفوا... وراح يضرب براحته على صدغه بعنفٍ ويقول بحزنٍ شديدٍ: يا الله... يا الله... نفذ القدر... ثم أردف بعدها بهدوء قائلاً: إنا لله وإنا إليه راجعون... مسكين... هذا قدره... حكم الله حصل! لقد أمرت القيادة بوقف الإعدامات... اتفقوا على تبادل الأسرى بيننا وبين عدونا،

والأوامر جاءت اللحظة بوقف تنفيذ جميع أحكام الإعدام وإرجاع المحكومين إلى السجن.

ريثما يتم ذلك... خُلعتْ الأكياس عن رؤوس البقية... نظر أحد المحكومين، وقد كان سابقاً هو أولهم، ومقدراً له أن يكون هو أول من ينفّذ فيه حكم الأعدام وقال: لا أدري هل أشكرك أيّها المسكين؟ أم أشكر ربي الذي استبدلك بي... المسكين الذي اخترقتْ جسده رشقة من الرصاص... كان كأنّه يبحث عن قدره بنفسه!! ثم عاد ونظر إلى جثة بديله مشفقاً ساخراً من القدر المحتوم... عاد ونظر إلى الجثة، التي كانت في رجفاتها الأخيرة! وهو يقول: وإنّما الأعمار بيدِ الله، أنا أريدُ وأنتَ تريدُ والله يفعلُ ما يشاءُ وما يريد.

****

الزوجة المدبرة

بالحرص تسود بيتها،

واللامبالاة

تهدم مملكتها.

" أغلى الهدايا "

عادَ من سفره... حقائبهُ مليئة بالهدايا... عمّتْ البهجة الزوجة والأطفال. هذا يقيس بذلته، والطفلة تقيس حذاءها والزوجة تلبس فستانها الجديد.

الجميع يحتفل بربِّ الأسرة العائد من السفر ...

دعتهم حَمَاته جميعاً إلى حفلة زواج لإحدى بنات صديقاتها، والعريس من جيران أهل زوجته.

بدأتْ الحفلةُ... همسَ الزوجُ في أذنِ زوجته:

_أترينَ ذلك الفستان الذي تلبسه شقيقتكِ... ألا يشبه الذي أهديتك إياه في عيد زواجنا الماضي؟!

قالتْ وهي تتصنع الابتسامة:

_أعرته لها كي تحضر الحفل...

قال:

_ولكنني أرى والدكِ يلبس بذلتي الكحلية!

_نعم بذلاته قديمة، أعرته إحدى بذلاتك كي يتأنق في الحفلة... فهو عمك أليس في هذا ما يسعدك؟

تكرر السؤال، وتكررت الملاحظات، وتكررت

الإجابات!.

تأخر العريس... كثرت التساؤلات...

ها هي العروس قلقة، تجلس وحيدة تنتظر عريسها الذي تأخر كثيراً !

بدأ الإحراج يصيب أهل العروس، وبدأت السخرية والشماتة تظهر في عيون المدعوين! التفتت زوجته إليه بابتسامة ناطقة:

_زوجي الحبيب... ألا ترى هذا الموقف المحرج لأهلي؟

سألها مستغرباً :ماذا أفعل لهم؟ أتريدين أن أترك الحفل وأذهب للبحث عنه؟!

تبسمت... غمزت بعينيها نحو المرتبة الفارغة التي تنتظر العريس...

أُعجبَ بالفكرة.

قال في نفسه: مناي...

ثم نظر إليها متأففاً يتصنع الضيق...

أتريدين أن تهديني لهم؟

_حبيبي... أنقذ الموقف... هيا يا بطل...

_أمري لله ...

رفع يديه إلى السماء يتظاهر بالدعاء لله كي يعجل بحضور

العريس...

وفي الواقع كان يقول:

_يارب عسر ولا تيسر طريقه...

لم ينتظر... على الفور انطلق نحو العروس... جلس بجانبها على المرتبة...

وأخذ يوزع ابتساماته بينها وبين المدعوين... تاه عقل زوجته بين الرقص والطرب... أخيراً أشارت إلى زوجها أنَّ الأطفال لم يعد لديهم القدرة على تحمل الصخب والسهر، أشار إليها:

اسبقيني ريثما يأتي العريس، رحلت هي وأولادها إلى البيت، أخيراً قال المأذون غاضباً:

أنا في عجلة من أمري... أين الشهود؟! لدي زيجة أخرى ...

لم يأتِ العريس!

كُتبَ الكتاب... تبدّلَ العريس فقط...

كان قد غلب النوم على زوجته بثيابها على أريكة الصالة، وهي تنتظره.

استيقظت فجراً ملهوفة... نظرت حولها لم تجد زوجها! هرعت إلى أهلها... استقبلها الجميع بالقبلات والشكر على تضحيتها الرائعة... لقد أنقذت الموقف... وبعد انتظار طال قليلاً خرج زوجها يقود عروسه من مخدعهما ويقول مبتسماً:

_ أنا الأولى بشكرك يا زوجتي ...الحبيبة، لاتنسي أنكِ أنتِ الأولى والأصل.

صاحت كالمفجوعة: ماذا؟!! هل نمتَ معها في غرفةٍ واحدةٍ؟! حبيبتي: نعم اعتبريني إحدى هداياكِ الغالية.

****

القناعة كنز لا يفنى

والرزق الحلال

هو خير المال.

(رواية قصيرة)

قد لا تحقق شروط الرواية من حيث الطول وعدد الشخوص،
لكنّها تحقق أهم وجوه الحياة... بفضل الإيمان بفضل الله.

" الكنز "

الفصل الأول

"صدفةٌ وأملٌ"

أصداء ناي الراعي الصغير تنتشر حوله في البادية الواسعة، وتتجاوب أصداء ألحانه مرتدةً من قعر الوادي العميق المجاور.

يحاول سلمان الراعي الصغير جاهداً أن يتلقف ذلك الصدى، ليطرب نفسه بألحانه، ويقيّم أداءه بنفسه ولنفسه، ها هو يعزف لحظة ثم يتوقف أخرى... يشنف أذنيه ليتلذذ بصدى نايه من جديد، ثم يبدأ عزفه مرة أخرى وينظر الى قطيعه متسائلاً: تُرى هل تطرب هذه الحيوانات لعزفي أيضاً؟ أم أن لاشغل لها سوى الأكل والرعي ولاتعي ماحولها؟ ثم يخرج مزماره من فمه بين الفينة والأخرى ليلتقط أنفاسه، ثم يعود للعزف من جديد، لكنّه بدأ الآن يلاحظ من بعيد شيئاً لا يجهله... غبارٌ قادمٌ من الصحراء البعيدة... يحجبُ الأفق عن نظره ويتقدم نحوه بسرعة... فالأرض التي يرعى بها ليست رملية متحركة، بل حصباء معشوشبة، وضع مزماره في

عِبّه... أخذ يهش أغنامه مسرعاً كي يجمعها في مكان واحدٍ كي لا تتشتت.

ولكن كما يقال... سبق السيف العذل، ها هي العاصفة قد وصلت بأسرع مما كان يتوقع، وغطت الأجواء بلونٍ بني غامق يزداد قتامة كلّ لحظة وينذرُ بساعاتٍ قاسيةٍ...

تعذرتْ الرؤية، وما زادَ الجوُّ قتامةً الأشواك والتراب الذي ترفعه الرياح من الأرض، لتمزجه مع الرمال الناعمة القادمة من الصحراء.

تركَ الراعي كلَّ شيء على حاله... لقد فاتت أي محاولة لتجنب العاصفة... انبطح على الأرض على عجل... بعد أن تلثّم بكوفيته ورفعها حتى غطت عينيه تقريباً... لم يكن يأمل بنجدةٍ تأتيه من أحد ولا حتى من إخوانه إطلاقاً... ففي مثل تلك العواصف لا يستطيع أحدٌ ما أن يصل لنجدته أو مساعدته، ولم يبقَ له من النجدة سوى إرادة الله، وعلمه بأنَّ هذه العاصفة الرملية ستنحسر قريباً، وما سيبقى من التراب العالق في الجوّ يهون أمره، ولن يعيقَ متابعة الرعي أو العودة إلى المنازل. فإما أنْ تهطلَ الأمطار مهما كانت شدتها أوغزارتها... وهو الحل الأفضل ليسقط معها الغبار على الأرض.

قال في نفسه: هذه الأحلام هي في علم الغيب ومشيئة الله... وقد تكون في سجل أحلامي التي لم ولن تتحقق، أخذ يقطع الوقت وهو منبطحٌ على بطنه بالتفكير بالجزء الأهم من حلمه، وهو أن يغير منوال حياته ويسكن المدينة يوماً، ويبتعد عن الشقاء الذي يعيش فيه في هذه البادية القاسية، وأن يتزوج من المدينة إذا أمكنه... ولكنّه أفاق على واقعه، فقال لنفسه وهو يلصق وجهه بالأرض: لم يمر عليَّ في حياتي مثل هذه العاصفة التي تضربُ بقوة لم أعهدها.

لف كوفيته على رأسه من الأمام، واستدار بالاتجاه المعاكس، لكن شدة الرياح أخذت ترفع ثوبه من الخلف وترميه فوق رأسه... عاد إلى ما كان عليه وألصق فمه بالأرض، وبسبب السرعة صُدم رأسه صدمة خفيفة بأحجار ربما تكون أقل من حجم قبضة اليد، لم تكن ظاهرة وكانت يغطيها التراب وبعض الرمال، إلا أنَّ دوران الريح وشدته فككت التراب بينهم وعرّتهم، أزاح الأحجار بيديه يميناً ويساراً وهو مغمض العينين، متعجباً من وجودها بهذا الشكل وفي هذا المكان، وما زاد من استغرابه عندما لامست يداه في مكانها رقعة ملساء

مسطحة لم يعرف ما هي في البداية... ولكن خبرته في المنطقة وقربه من المناطق الأثرية وصلابتها، توقع بأن تكون حجراً منحوتاً يخفي أو يغطي شيئاً تحته... جال في نفسه أن يحاول رفعها وإيقافها على أحد أضلاعها، كي ترد عن رأسه الرمال وتحميه من عصف ما تحمله العاصفة ومن قوة الرياح المحملة بالرمال، والأتربة...

فقد كان من لسعهما من الشدة بحيث يشعر بهما حتى من فوق ثيابه فيُشل عقله... ويكاد ينفجر قهراً.

فتح عينيه على الرغم منه... كي يرى ما يفعل، لكنّه أغلقهما على الفور، فالرمال الناعمة تدور كحجر الرحى في طاحون للدقيق... بدأ يعالج تلك الرقعة بسكينه من أحد أطرافها كي يرفعها...

وبعد جهدٍ كبيرٍ استطاع أنْ يرفعَ جنبها...

دفعها بيديه الاثنتين، وأشد ما أثار استغرابه أنّه استطاع رفعها قليلاً من جهة واحدة، لكن ضرب الرياح عليها وثقلها أعجزاه عن توقيفها...

تابع عمله دون أن يرفع رأسه عن الأرض... أسند أصابع قدميه على الأرض، ثم أخذ يضغط نفسه بقوة... أخيراً بعد محاولات ليست سهلة ارتفعت الصخرة، تحسسها بيده

جيداً من الجهتين وهو مغمض العينين... تبين له أنّها على شكلِ بلاطةٍ كبيرةٍ مربعة الشكلِ، أوقفها على أحد جنباتها ثم سحب نفسه الى الأمام قليلاً ليحمي رأسه بها من العاصفة، وقد أعجبه هذا الساتر الجديد، لكنّه كادَ أن يهوي في الفتحة التي كانت تغطيها الصخرة...

أنزل كوفيته عن عينيه، ثم نظر إلى الأسفل، لم يرَ شيئاً حدّقَ جيداً... لا شيء سوى ظلام دامس... وزادَ الظلامُ ظلاماً هذه العاصفة اللعينة... أطلقَ يدهُ في الفتحة... حركها دائرياً... لم تلمس يده شيئاً سوى فراغ لا يعلم منتهاه ... فكر في النزول في هذه الفتحة، لربما تتسع له، ولكن الخوف من المجهول دفعه كي يصرف النظر مؤقتاً عن الأمر، ولو إلى حين... قال في نفسه: المهم أن تمضي هذه العاصفة على خير أولاً، وأعود إلى بيتي بعد أن ألملم أغنامي...

لكنّه ظلَّ منبطحاً، ممسكاً بتلك الصخرة، كي تبقى واقفة تصد عنه قوة الرياح، وتخفف من رشق الرمال على وجهه وعينيه وإن كان قد تلثم بكوفيته... لكن لسع الرمال ما زال يضرب فيما تعرى من وجهه ويديه يشعر به كأبر النحل..ظلّ ممسكاً بالصخرة...

يغمض عينيه على ما دخل فيها من تراب، صابراً على قدره. وفكره يجول فيما آل إليه حاله...

طالت العاصفة... تيبست يداه على تلك الصخرة المرتكزة على أحد أضلاعها... في النهاية أفلتَ يديه عنها بحيث سقطت مكانها، محدثةً صوتاً باهتاً تجاوب صداه في الفراغ الموجود أسفلها، ولم يخفه صوت الرياح...

وضع يديه على رأسه من جديد، ليحميه من لسع الرمال بعد أن استغنى عن ذلك الساتر، ولكنه تراجع فوراً فقد تحول اللسع إلى يديه، فأخرجَ خنجره مرة ثانية محاولاً رفع الصخرة ليحتمي بها من جديد، لكن في هذه المحاولة أبت أن تتحرك فقال في نفسه: ربما استعصت بسبب تراكم الرمال حول حواف قاعدتها... عندها جلس عليها وأدار ظهره إلى الرياح.

.....

الفصل الثاني

" حلم سعيد "

كل هذا لم يشغل باله عن حلمه... فشرد بفكره نحو المدينة وحياة المدينة، التي كان يعجب كثيراً بها وبسكانها، عندما كان والده يأخذه معه إليها أحياناً، لبيع منتجات حيواناتهم، من لبنٍ وصوفٍ وغير ذلك... نسي العاصفة وسرح في ذكرياته القليلة في المدينة... عاد تلك اللحظة إلى ذاكرته يتذكر كيف أنّه في إحدى المرات تاه في شوارعها، وهو يتنقل بين واجهات المحلات... وكيف عثر والده عليه بصعوبة، ومنذ ذلك الحين، يتمنى من كلِّ قلبه أن يقطنها ويعيش فيها، ولكن من أين له المال؟! كما أنَّ والده سيرفض أن يسمح له بالذهاب وأن يترك حياة البداوة، ويعيش بعيداً عنه هناك... هذا الحلم الذي ما زال يدغدغُ شعوره اليوم أكثر مما مضى... بدأ يحس جدياً بما يعاني من شَظَفِ العيشِ وصعوبته، خاصة وأنَّ الدليل أمامه الآن في هذه العاصفة الهوجاء.

تابع عمله... فجأة شعر أنَّ الصخره التي يجلس عليها كأنَّها تحركت حركة بسيطة! وإن كان قد شكَ في

حركتها... لكنّه أحس ثانية بحركة واهنة جديدة...
استغرب الأمر كثيراً...
عاد وانبطح عليها كما كان في السابق، وقد ساوره الشك إذ لم يصدق ما أحس به...
لكن البلاطة آخذة في الحركة! تابع لمسها... نعم الحركة موجودة وإن كانت ضعيفة جداً، ومع هذا أصابه الرعب...
فكرَ بالهرب ولكن إلى أين؟ الخربة التي يمكنه اللجوء إليها بعيدة، وتقع في نهاية سفح الوادي بهذا الظلام المستحدث الذي فرضته الطبيعة لا يمكن الوصول إليها إطلاقاً، ثم ماذا سيفعل بأغنامه؟ لا يستطيع أن يترك المكان الآن... عليه الصمود حتى تهدأ العاصفة.
بدأت القشعريرة تغزو جسده من جديد، كذلك شدة الخوف والرعب كادا أن يفقداه وعيه...
أحس بالعطش الشديد، لكنّه لا يستطيع الوصول إلى الماء، وليس أمامه سوى الصبر، ها هي الصخرة ترتفع تحت رأسه في ظلام العاصفة، ولا يدري ما الذي يرفعها، لقد نال منه الرعب أكثر مما نال منه العطش... تيبست أوصاله وتراخت أعصابه، وأخذ يتساءل: هل هناك من يرفع الصخرة؟ هل مجموعة من الجن تعبثُ بعقله؟! فجأة

أفلتَتْ من تحت رأسه وسقطت إلى ما كانت عليه... ما حدث معه قبل قليلٍ نفسه، وسمع لها دوياً أجوفاً بالكاد سمعه هذه المرة... لقد غطى عليه صوت الريح والرمال التي تعبث بالأشواك والتربة... لم يستطع أن يرفع رأسه إطلاقاً... هدأ عقله نوعاً ما الآن... أخذ ينتظر ولكن لا جديد... أصغى وهو ملصق أذنه على سطحها، وحين لم يعد يسمع شيئاً هدأ روعه ثم استعاد وعيه... عندها فك وعاء الماء الجلدي (قربة صغيرة) عن وسطه، وحلّ رباطها ثم شرب قليلاً، وأخذ يفكر فيما حصل معه قبل لحظات، وقال يحادث نفسه: لو أنَّ ما حدث معي من عمل الجن، وفي نيته الخروج من باطن الأرض، لماذا عاد ولم يخرج؟! ولكن الجن ليس بحاجة لأبواب يخرج منها، وهذا ما أسمعه من رجال القبيلة، فإنّه يخرج كالسراب لا ترده حواجز ولا جدران... أليس هذا من عمل إنسان؟ ولكن ماذا يوجد تحتي في هذه اللحظة...

ثم عندما تنتهي هذه العاصفة سأعودُ إلى بيتي وأخبر والدي بهذا السِرِّ، فربما لديه خبرة بتلك الأمور...

أخيراً هدأت ثورة العاصفة، وبدأت تتراجع تباعاً ببطءٍ شديدٍ، وتوسع مجال الرؤية عدة خطوات، لكن سلمان لم

يغير مكانه، بل عاد وألصق أذنه من جديد على سطح الصخرة...الآن لم يعد يسمع شيئاً.
رفع كوفيته عن عينيه... بالكاد استطاع أن يفتحهما لكثرة ما حوتا من تراب، غسلهما بما تبقى معه من ماء... نظر حوله باحثاً عن أغنامه، وللوهلة الأولى لم يرَها! لقد أصبحت بلون الأرض، ولم يرَ الأغنام إلا عندما بدأ بعض القطيع النهوض عن الأرض...

أخذ يتفقدهم، تبين له أنَّ العاصفة شتتهم ولونت صوفهم، كان أول عمل قام به أن جمع بعضاً من الحجارة من حوله... غطّى بها الصخرة، ثم أضافَ فوقها الكثير من الأشواك التي اقتلعتها العاصفة وتعلقت بعوائق مثلها... موَّه الصخرة تماماً، ووضع بعض العلامات للعودة إليها، ثم ذهب للبحث عن أغنامه...
لكنَّ فكره أصبح في شغلٍ عن كلِّ شيءٍ، إلا الصخرة التي عثر عليها.
ابتعد قليلاً عن المكان في بحثه عن بقية مواشيه، وعندما رأى مواشيه بدأت من جديد تعود للرعي، وتنظف صوفها عاد إلى مكان الصخرة، فجلس قربها ينظر إلى كومة

الحجارة التي غطاها قبل قليل بالأشواك، يفكر كيف سيتصرف... فجأة رأى الحجارة تهتزُ من جديد وببطء، حينذاك فقد تماسك عقله، وركبته قشعريرة هزّتْ جسده وأخذ يجري هارباً.

ساقَ ما استطاعَ من مواشيه بسرعةٍ، وهو لا يكاد يجرؤ على النظر خلفه، لقد بدأ يشعر ويتوهم أنَّ شيئاً ما يطارده ... ويسمعُ خلفه أصواتاً مختلفة، وفي الحقيقة مصدرها الأشواك، التي تدفع بها الرياح التي خفتْ شدتها فتتراكض خلفه، وكانت الأشواك تصطدم أحياناً به من الخلف، أو تتسلل من بين رجليه، فيظنّ بأنَّ هناك من يطارده أو يجري خلفه...

.....

الفصل الثالث

" نجدة عاجلة "

وصل إلى دابته وقفز على ظهرها بسرعةِ البرق، ثم نعرها بقوة لتنطلق به نحو المنازل...

شاهد من البعيد شبح رجلين قادمين، لقد كان التراب العالق في الجوّ المتبقي من العاصفة يحجبُ الرؤية قليلاً فظنهما للوهلة الأولى اثنين من الجنّ جاءا يطاردانه... لكن عندما اقتربا عرف فيهما والده وشقيقه الأكبر سرحان، عندها اطمأن وعلم أنّهما جاءا للبحث عنه والاطمئنان عليه وعلى القطيع، تابع سيره مسرعاً نحوهما حتى التقى بهما، عندها أحس براحة واطمئنان ...سأله والده عن حاله: أخبره أنَّه على أسوأ حال، ليس بسبب العاصفة فحسب، إنّما بسبب ما مر به، وخوفه من الجن والشياطين.

بدأ يشرح لهما منذ البداية جميع ما حصل معه إلّا أنَّ والده قال له: دعنا الآن يا ولدي نجمع القطيع، وستروي لي أثناء العودة حكايتك، المهم أنّك نجوتَ من العاصفة اللعينة...

نظرَ والده حوله باحثاً بنظره عن القطيع، فوجده متفرقاً في

جميع أنحاء تلك البقعة...
فهمَ سلمان ما يريده والده، فقال: لم تمهلني العاصفة لأجمع القطيع.
رد والده: نعم... حتى بيوت الشّعر أطاحت بها العاصفة... المهم أنّكَ نجوت... فلنعد نحن إلى البيت وندع أخاك سرحان يتابع الرعي ويعود بالقطيع في المساء.
فقال سلمان: يجب أن تسمع حديثي قبل الذهاب.
ولم ينفع إصرار والده على أن يؤجل الحديث، ما اضطره لأن يوافقه على ما أراد... عندها مشى مع ولده الذي قال له: تعالَ يا أبي معي وسأريك ما تقشعر له الأبدان... تبسم والده وهو يهزأ من كلام ابنه... ويقول ساخراً: جيلٌ يخافُ من ظله...
وصلا إلى المكان المذكور، وقبل وصولهما شاهدا الحجارة تتحرك واضحة فوق مكان البلاطة... لكن الرجل لم يأبه كثيراً للأمر... على الفور طرأت لوالده فكرة استحسنها، لذلك نادى على ولده سرحان. وكان لا يزال قريباً، ناداه وانتقى صخرة كبيرة استطاعوا بعد مجهود كبيرٍ دحرجتها ووضعوها فوق الصخرة، التي كانت متساوية مع الأرض فسهلت عليهم ذلك...

توقف اهتزاز الصخرة التي تغطي الفتحة، التي شاهدها سلمان في الصباح، وكان قد قدر أنّها تتسع لمرور رجل واحد... جلس والدهم فوقها وذهب سرحان ليتابع مواشيه وقال:

عندما كنت صغيراً كنت ألعب في تلك الخربة... وأشار إلى خربة رومانية في كتف الوادي، وكنت أدخل في ممرات كثيرة، ربما تكون نهاية إحداها هذه الصخرة، فجأة... وبينما هما في حديثهم لفت أسماعهم قرقعة... وإذ بالصخرة تهبط قليلاً فاقتربا نحوها، وقد توقف الاهتزاز بعد لحظات قليلة، وبدءا يسمعان صوت ضرب مطارق وإن كان مكتوماً، لكنّه واضحٌ... فجأة سقطت الصخرة التي وضعوها قبل قليل، لكنَّ حجمها الكبير الذي كان أوسع من الفتحة جعل جزءاً منها يحل في الفتحة مكان الصخرة التي كانت تحتها... فعلقت مكانها لضخامة حجمها...

تركنا سلمان ووالده أمام الصخرة التي هبطت فجأة، بعد أن تكسرت البلاطة الحجرية أسفلها وهبطت وعلقت مكانها...

قال أبو سرحان لولده: يبدو لي أنَّ من المحتمل أن تكون

الصخرة السفلى قد تم تحطيمها من الأسفل، لذلك سقطت الصخرة التي دحرجناها فوقها، ومن المؤكد أن هناك من يبحث عن شيء ما؛ دعنا نعُد اليوم إلى المنازل، وغداً نعود إلى هنا، ونبحث عن طريقة للدخول من الخربة هناك، فقال ولده: ولماذا غداً، دعنا نتابع اليوم... الوقت ما زال مبكراً، ولدينا متسع من الوقت للعمل.

مع إصرار سلمان... وافق والده في نهاية الأمر ونادى سرحان للمساعدة...

تعاونوا من جديد على دحرجة الصخرة، وإزالتها من مكانها... لاقى الجميع صعوبة بالغة في إخراجها بسبب الجزء الذي غرق في الفتحة، لذلك أخذ العمل منهم وقتاً وبعض الصعوبة... المهم أخيراً رُفعت الصخرة، اقترح الأب أن ينزل بنفسه إلى الأسفل، وقد خاف على ولديه من أن ينالهما مكروه، ولكن اعتراض الولدين الشديد دفعه لأن ينثني عن عزمه...

قالا له: لن نتركك تقوم بتلك المخاطرة مهما كلفنا الثمن... اشتد الخلاف حول من سيخاطر بنفسه بين الأخوة فقط، وكان كلّ منهما يدفع الآخر ليبعده عن الحفرة وينزل هو...

أخيراً قال سلمان لوالده: نحن جميعاً في خدمتك يا والدي، ونخشى أن تصاب بمكروه، ولن نسامح أنفسنا بعد ذاك إطلاقاً... وأردفَ:

_ أنا من اكتشفت الأمر، وأنا من سيكتشف ما بداخل تلك الفتحة، وأنا من سينزل.

_ بل نرمي قرعة بيني وبينك.

_ وهو كذلك... سأضع حصاة في إحدى يدي، وطبعاً من تكون نصيبه اليد المليئة ينزل هو.

_ حسناً وهذا عدل.

وضع سلمان حصاة في إحدى يديه وأراهما إياها، ثم وضع يديه خلف ظهره ورمى الحصاة خلسة، ومدهما كي يختار كلّ واحد يداً...

_ اختر يا سرحان أولاً، فأنت الكبير...

طبعاً كان اختياره غير موفق، ولا يعلم بأنّ الاثنتين فارغتين... على الفور استدار سلمان نحو الفتحة ينظر في كيفية النزول، أما الأب فقد تدحرجت دموع عينيه عندما رأى ولديه يتسابقان على التضحية، وحيلة سلمان كيلا يترك أخاه يخاطر دونه!

تناول قطعة خبز ليسد جوعه بها، حيث أنَّ العاصفة

منعته من تناول مايقتات به، وربما هدّه الجوع والعطش في هذا المكان المجهول، ثم ناوله سرحان زمزميته ليشرب إذا عطش...

قال والدهما: انتظرا قليلاً... أخذ والدهما حجراً صغيراً ورماه في الفتحة، وأصغى للصوت المنبعث نتيجة اصطدامه بالأرض، فوجد أن الحفرة عميقة إلى حدٍّ ما، فأحضر حبلاً كان على ظهر دابته وربطه فيه، ثم تساعدا على إنزاله، ولكن طول الحبل لم يكن كافياً كي تصل أقدام سلمان إلى الأرض، عندها صاح بهم أن أخرجوني... وفعلاً أعادا سحبه إلى الأعلى، حتى أخرج قسمه العلوي وتمسك بيديه في حافتي الفتحة ريثما أعادا وصل الحبل. أنزلاه ثانيةً من جديدٍ... أيضاً انتهى الحبل وعرف بأن تقديراتهما كانت خاطئة.

عادا فأخرجاه ثانية، وعندما خرج من تلك الأعماق، سألاه عما رآه في الأسفل... قال إنّه لم يشاهد شيئاً...

لم يرَ سوى ظلام دامس، ولم يستطع أن يميز أيّ شيءٍ أيضاً...

حتى أنَّه لم يستطع تقدير المسافة المتبقية تحته ما بين

قدميه والأرض، ولكنّه كان يسمع بعض الأصوات الغريبة، على شكل صفير أو ما شابهه! فقال والده: يحتمل بأن تكون تلك الأصوات، هي أصوات الهواء في الممرات، ولكن يجب أن نحضر نوعين من الحبال الطويلة على أن تكون ثخينة ورفيعة... الثخينة كي نتدلى بها، وتصل بنا إلى الأرض، ربما نلحق بك إذا أعلمتنا بأنّ المكان آمن، فنمد الحبال الرفيعة خلفنا كلما مشينا في تلك الأنفاق، وتكون دليلاً يهدينا أثناء العودة، وكذلك لا بد من وجود مصباح يعمل على البطارية من أيّ نوع لا ينطفئ.

دعونا نؤجل عملنا إلى الغد... على أيّة حال سنذهب غداً الى المدينة لبيع بعض الخراف، وفي طريقنا نشتري مصباحاً وحبالاً، ويكون المصباح من النوع الجيد الذي يعمل على البطارية، نخاف أن ينطفئ مصباح الزيت لأي سبب، ونضيع داخل تلك الدهاليز... لقد دخلتُ مرة إلى تلك الخربة عندما كنت صغيراً، ووجدت صعوبة كبيرة في الخروج، مع أنّني لم أتعمق داخل تلك الدهاليز كثيراً، بسبب الظلام الحالك والخوف من المجهول...

كما لا يمكننا التنقل في الظلام دون مصباح، فربما تكثر هناك الأفاعي والحشرات السامة، وغيرها... أعادوا

الصخرة إلى مكانها لتغطي الحفرة ورحلوا...
في صباح اليوم التالي، بكّرَ سلمان ووالده بالذهاب إلى المدينة معشوقة سلمان وحبيبته وأمله.
أخذ سلمان ينظر إلى المباني الضخمة، ويلاحظ أناقة الناس التي تسير في الطرقات، التي تزدحم بالمارة، ويقف أمام واجهات المحلات المزدانة بكلِّ غالٍ ونفيس، يتحسر على حاله وحال أهله الذين يقطنون الخيام حتى الآن، ويعانون من برد الشتاء، وحرِّ الصيف ويشفق عليهم...
يناجي نفسه ويقسم بالله:

أنّه لن يتركهم يتابعون حياة الريف والرعي إن قدرَ له أن يحقق أمله...
اشتروا حاجياتهم بعد أن باعوا ما جاؤوا لأجل بيعه، ثم اتجهوا عائدين. وفي طريق العودة كانت أفكار سلمان تتنازعه، بين ما رأه في المدينة المرفهة، وبين حياة الخيام وبيوت الشعر التي سيأوي إليها الليلة، يحس وكأنّه يأوي إليها للمرة الأولى ويعرفها! ثم ينتقل بفكره بين الحفرة التي اشتروا الحبال لأجلها ويسأل نفسه: هل سيجد فيها ما يغنيه؟ هل سيعثر على كنز ينقله وأهله من حياة

البادية إلى حياة جديدة أكثر رفاهية؟ اقتربت رحلة العودة من نهايتها، وكانت الخربة تُرى لمن يسلك الطريق الذي يسلكونه الآن ولا تبعد كثيراً عن طريقهم... وتشاهد لهم من بعيد، وبنظر البدوي الثاقب، شاهد سلمان ثلاثة رجال ينزلون من شاحنة صغيرة، ووجهتهم الخربة... قال أبو سرحان موجهاً كلامه لولده سلمان: لا أحد يدري ما الذي يحدث هناك داخل تلك السراديب؟! هؤلاء الثلاثة هم الذين يحدثون الأصوات داخل تلك الدهاليز، وهم من كسروا غطاء الفتحة التي أخافتك. في البداية يجب أن نعرف عما يبحثون، هذا ما يجب علينا معرفته أولاً... ربما يسرقون آثاراً ثمينة أو تماثيلاً وكنوزاً ...الخ فقال سلمان: لماذ لا ننتظر خروجهم في مكان لا يروننا فيه ونراقبهم، ونرى ما يخرجون معهم، رد والده: وهل تظن بأنّهم إذا أحسوا بنا سيتركوننا بحالنا، كلا هم من سيراقب أولاً، وقد يتركون أحداً منهم في الخارج يراقب المكان... يجب علينا أن نكمل ما بدأنا به، من حيث انتهينا بالأمس... غداً باكراً نأتي جميعنا مع أحد إخوانك الصغار ليتابع رعي القطيع، بينما نقوم ثلاثتنا بهذه العملية، فقال سلمان: ولماذا لا يكون هؤلاء قد وجدوا

ما وجدوا ونخرج بخفي حنين... قال أبو سرحان متهكماً:
_وهل خبأنا شيئاً لنخسره، نحن وما كتب الله لنا ...
وفي اليوم التالي، صباحاً...
بكّرَ أبو سرحان مع وأولاده إلى المرعى، مصطحباً أيضاً ولده الصغير معهم، وجعل مهمته التفرغ لمتابعة القطيع...
أما ثلاثتهم فكانت مهمتهم النزول إلى السراديب...
وصل الجميع الى المكان المطلوب، فيما نشر أحمد قطيعه قريباً منهم وتابع رعايته، واتجه ثلاثتهم نحو الصخرة، ورموا بينهم قرعة، أخرجوا والدهم منها، وتصنع سلمان الفوز فيها!
اتفق الجميع على أن ينزل كما قلنا سلمان أولاً إلى النفق كونه صاحب الفكرة، وهو من وقعت عليه القرعة المزيفة... ربطوا الحبل بالصخرة، ثم نزل مستعيناً بالعُقدِ التي صنعوها في الحبل.
تدّلى سلمان في الفتحة، وهو يحمل معه المصباح وقربة ماء، وسلاحاً يدوياً عبارة عن خنجر... للدفاع عن نفسه، في حال تعرضه لأيّ خطر...كان المكان عميقاً جداً...
ولكن استطاع النزول والوصول

إلى قاع السرداب.
رأى من خلال نور مصباحه المكان... وجده عبارة عن دهليزٍ قصيرٍ، وفي نهايته ينعطف المكان على شكل زاويةٍ قائمةٍ...
أضاء مصباحه نحو الجهة الأخرى، وجدها كمثيلتها...
نادى على سرحان كي ينزل لعنده، فأدلى والده الحبل، ثم نزل سرحان كما نزل سلمان بالطريقة نفسها، مستعيناً بعقد الحبل... جلس أبو سرحان ينتظر أولاده ويناديهم بين الحين والآخر بصوتٍ عالٍ، ليطمئن عليهم...
وبعد قليل، لم يعد أحد منهم يرد عليه ولا يسمع صوت الآخر.
هنا عاش أبو سرحان لحظات من القلق على أولاده، يلوم نفسه كيف وافقهم على هذه المغامرة...
أما في الأسفل فكان الاثنان قد كسرا حاجز الخوف لديهما، قال سرحان:
_ انظر إلى هذا السلم الخشبي الموضوع على جانبه على الأرض...
_ نعم... يبدو أنَّ أخشابه نقلت من الخارج، وصُنع وجُمع هنا...

_ انظر إلى الأعلى، يبدو أنّهم جاؤوا بهذا السلم للوصول إلى الفتحة لتحطيم الغطاء الحجري من الأسفل، وكما ترى فإنَّ مكانه ظاهرٌ في الأعلى، وحطام ذلك الغطاء الحجري أمامنا، كما ترى قطعه المتناثرةِ على أرض الدهليز... تعاون الاثنان على رفع السلم، وأسنداه على جدار النفق بحيث يستطيعان النزول والصعود من الفتحة عند الحاجة، ثم اتفقا على السير معاً بالاتجاه نفسه...

اتخذ الاثنان طريقهما باتجاه المدخل الذي شاهدوه جميعاً عند عودتهما بالأمس من المدينة، حيث تقف سيارة قربه... هكذا تابعا سيرهما بالاتجاه ذاته... بعد قليلٍ بدأت تتضح لهما أصوات وغمغمة لم يفهما كنهها، تابعا نحو الصوت بحذرٍ شديدٍ والخوف يملأ قلبيهما من المفاجآت غير المتوقعة...

أرسل حامل المصباح ضوء مصباحه حولهما ليدرسا المكان، لكنّهما لم يجدا سوى الجدارين المتقابلين تحت الفتحة مبنيين بحجارة منحوتة بدقة، وتبين لهما أنَّ الدهليز ما هو إلَّا مجرى مائي طويل، محفور تحت الأرض، وأن تلك الفتحة جعلت فقط لمراقبة جريان الماء، وربما

لملء الدلاء منها، ولم يعرفا للنفق بداية، أو نهاية... يبدو أنّه حُفِرَ في ما مضى لتغذية المدينة بالمياه سابقاً، عندما كانت تلك المنطقة يوماً ما عامرة بالسكان...على هذا قررا العودة والخروج من المكان بأسرع ما يمكن... بعد أن تحطمت أحلامهما بالعثورعلى ثروة... خاصة سلمان الذي كان يبني أمله على ثروة تنقله إلى المدينة، والمدنية، عاد الاثنان إلى الفتحة التي نزلا منها قبل قليل ... فقال لأخيه:

لماذا لا نسير قليلاً في الاتجاه المعاكس؟

لم يعترض سلمان... بل سارا معاً... طال بهما المسير، وخبا ضوء مصباحهما...

أما في الأعلى، فقد جن جنون الأب الذي لم يجرؤ على مناداتهما بصوتٍ عالٍ، كيلا يُسمع صوته، خشية أن يكون من رآهم بالأمس داخل ذلك السرداب، فقام بجمع بعض العيدان والأشواك وربطها بحبل، ثم نزل من الفتحة مستخدماً السلم، الذي أسنده ولداه على الجدار، وما أن أصبح جسده في الداخل، حتى سحب الحبل حتى غطت الأشواك الفتحة ولم تعد تظهر للعيان.

وكان أحمد الذي يرعى الأغنام يشاهد والده من بعيد فأخذ

يناديه، ولكن والده أصبح في عالم آخر... لذلك لم يسمعه، ولم يرد عليه... كان قلق الأب الشديد على ولديه الآخرين يأخذه في أفكار سوداوية، من أن يكون قد حدث لهما مكروه.

نزل أبو سرحان... ووصل إلى الأرض... وحار كيف وإلى أين سيتجه... هل يتجه يميناً أم يساراً؟! أصغى جيداً... لم يسمع شيئاً يدل على وجودهما! حبس أنفاسه لعلَّ صوتاً ما يصل إلى أذنيه... لكن دون جدوى، لم يجد له مخرجاً من أزمته سوى البكاء على ولديه... جلس على الأرض الرطبة التي يتسرب إليها بعض الضوء، من بين الأشواك فوقه في الأعلى، وأخذ يندبهما... فجأة سمع أصواتاً كأنّها لأقدامٍ تجري من بعيد... لكنّها تتسارع للاقتراب منه، ويتضح أنّها تجري بسرعة كبيرة، على الرغم من وعورة الأرض... اقترب وقع الأصوات بشكل كبير... حاول النهوض بسرعة وصعود السلم للعودة إلى الأعلى، ولكن خوفه وقلقه على أولاده منعه من ذلك، كما أنَّ الأصوات البعيدة التي بدأ يسمعها باتت الآن قريبة جداً، ولن تترك له وقتاً كافياً للصعود دون أن ينكشف أمره، لذلك بقي قابعاً في مكانه مفضلاً البقاء حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

اقتربت الأصوات كثيراً... فجأة برز شبح رجل ثم آخر يجريان باتجاهه، لكنّه لم يميزهما بسبب شدة الظلام، وفوجئ الاثنان به... ما أن اقتربا منه حتى أرعبهما شبح أبو سرحان الملثم والمقعي أمامهما والذي انتصب من جلسته فجأة، فأثار الرعب فيهما... خاصة وأنّه كان يلبس عباءةً قاتمة اللون، لم يتوقفا من الرعب، بل رميا شيئاً كانا يحملانه، فأحدث دوياً في هذا السكون... ألقيا ما بأيديهما معاً... كلّ واحدٍ من جهة...

وجريا هاربين بأقصى سرعة، وهما يتخبطان في جريهما في الدهليز الوعر المظلم... ولا ننسى أنَّ أبو سرحان أيضاً أذهله الموقف وأرعبه... لكنّه تمالك نفسه عندما رأى الشيء الذي أفلت من بين أيديهما...

شك أبو سرحان بمحتواه... لكن صوت رنين الذهب عندما تناثر على أرض النفق لم يخفَ عليه.

لحظات واستعاد وعيه كما كان، لكنّه لم يعِرْ الأمر اهتمامه، لقد كان أهم ما في الأمر بالنسبة له هو ولداه... لم يبالِ بما أسقط هؤلاء، ولم يغره رنين الذهب، ولا بالى بما أخذ يتراقص أمامه مع كل نسمة تحرك الأشواك في الأعلى فتنثر بقعاً من الضوء على الأرض أمامه فتعكس

بريقاً أخاذاً مما تناثر أمامه... الدنيا لا تساوي شيئاً أمام سلامة ولديه الذي بات حتى الآن لا يعرف عنهما شيئاً... إنَّ كلَّ همه سلامة أولاده... مصيرهم، وأين هما؟!!

.....

الفصل الرابع والأخير

وتغيرالحال

كان بريق العملات، والسبائك المتناثرة يتلألأ مع بقع الشمس الصغيرة مع كلّ بقعة ضوء تتسرب من بين الأشواك في الأعلى... وهو الغطاء الذي كان قد ستر به أبو سرحان قبل قليل الفتحة التي نزل منها... بنظره ما أتفه ما كان يراه الآن أمام غياب ولديه... ينظر إلى ذلك البريق نظرته إلى توافه لا قيمة لها... كل فكره وهمه لا يتجاوز حدود اختفاء ولديه.

حار أبو سرحان فيما سيفعل، وأين يذهب، ومن أين يبدأ بحثه؟ نظر يساراً... لجمه الخوف من المكان الذي هرب نحوه قبل قليل من ألقيا الصندوق أمامه... عندما أرعبهما وأرعباه، نظر يميناً، لاح له في هذه اللحظة تسرب ضوء باهت جداً... استبشر خيراً، وتعلق أمله في هذا الشعاع الخافت الذي بدا له... يأمل بأن يكون ذلك النور صادراً من مصباح ولديه.

ولكن سرعان ما انطفأ الأمل بانطفاء الشعاع!

مضت دقائق أخرى قبل أن يعود الشعاع الباهت من جديد، وينتعش أمله مرة أخرى أيضاً،

ثم خبا الضوء بعد لحظات مرة أخرى... أمضى أبو سرحان وقتاً ليس بالقصير بين الأمل بعودتهما وفقده إياهما... ولكن في النهاية، عادت له الحياة عندما رأى ولديه قادمين... وقفا مبهوتين أمام بريق الذهب والمجوهرات التي تعكسها أشعة مصباحهما الضعيفة... ولكن هذا لم يستمر لحظة... ومع سماع صوت والدهما مرحباً بقدومهما، زالت قشعريرة الخوف... وبقي هوس الثروة التي تخالطتها الرهبة مما يرون، وخاصة حين فوجئا بصوتِ والدهما، عندما كان الظلام يخفيه عنهما، زد على ذلك رؤية الثروة المنتشرة على الأرض أمامهما.

بدأ حوارٌ بين الأب وولديه... بدأه الأب مستفسراً، عندها أطفأ سرحان المصباح، وهو يرد على والده، وإن كان قد خفت نوره ولم يبقَ سوى بصيص بسيط يصدر عنه، لا يغني...

_ ولكن لماذا تأخرتما يا أولادي؟ هذا ما أقلقني عليكما كثيراً.

_ لقد خفت ضوء المصباح كثيراً ويستحيل السير دون ضوء... كنا نطفئه ونتوقف قليلاً ريثما يشحن شيئاً بسيطاً بين الحين والآخر حتى تمكنا من العودة إلى هنا.

_ وهل حصلتم على شيء خلال بحثكم؟

_ كلا... إنّه نفق لجر المياه لا أكثر، ولكن ما تلك الثروة المبعثرة أمامك هنا وهناك؟

_ ضع بطارية جديدة في المصباح... لقد نسيتما أخذها معكما.

_ ما هذا يا والدي؟ من أين وكيف عثرت على ذلك الصندوق الخشبي المحطم؟

_لا أدري... وقص عليهما ما مر به قبل ساعات.

_ سبحان الله هو رزق أرسلته السماء إلينا... دعنا نجمعه ونرحل.

_ لن يتركونا بحالنا بعد أن خبلتهم المفاجأة... فتركوا كلّ شيء وهربوا، ولكن هل سيتركون هذا الكنز؟!

_ إنّني أسمع أصواتاً بعيدة... أطفئا المصباح.

سكتَ الجميع وانتظروا... كانت أصوات الأقدام المتسللة، تتضح شيئاً فشيئاً.

قال أبو سرحان: الآن سيأتون حتماً وسلاحهم بأيديهم، لم يعد بالإمكان صعود السلم، الوقت ضيق جداً، ولكن دعونا نتعمق قليلاً في الجهة التي قدمتما منها ونلُذْ خلف زاوية المنعطف.

الآن وصلتهم أنوار خافتة... لكن انعطافات المكان الكثيرة، أخفت وراءها كلّ شيء، هربوا ثلاثتهم واختبؤوا في الجهة المقابلة ينتظرون ما سيحدث، يسيطر على قلوبهم الخوف والرعب... لم يبتعدوا كثيراً... لاذوا بأول منعطفٍ... لم تعد الضوضاء بعيدة عنهم...

والضوء الباهت أصبح الآن ساطعاً، ومن خلال الجلبة الكثيرة شعروا باقترابهم، لم يبقَ سوى أمتار حتى يصل اللصوص إلى الكنز المبعثر... إذا تقدموا أمتاراً أخرى سيصلون إليه، وهنا لا بد من حل... فكر أبو سرحان، إذا تعمقوا في النفق أكثر، فلا بد من إضاءة المصباح، عندها سيكتشف أمرهم، وإذا عادوا إلى مكانهم للخروج من الفتحة لا بد من رفع السلم، فإما أن تكشفهم الضوضاء وإما أن يصل أولئك اللصوص قبلهم... أنقذ موقفهم الحرج سماعهم لأصوات إطلاق نار توضح لهم بعد لحظات أنه بين طرفين... أرعبتهم تلك الأصوات، وزاد خوفهم الظلام الحالك رهبة وهلعاً.

لكن بعض الأشعة الخفيفة المتناثرة التي تسببها بقع الضوء الصغيرة، ما زالت تمنح المكان بعض الرؤية الباهتة عندما تتسرب من بين الأشواك المغطية للفتحة في الأعلى،

كما عرفنا من قبل...
كان خوفهم له أسبابه ومبرراته، المكان الذي هُم فيه مقفلٌ لا يمكن الخروج منه... وأما الجهة التي جاء منها قبل قليل حاملاً الصندوق، فيبدو لو عثر أولئك على مخرج آخر لما قدما من هذا الطريق... ثم أعقبهما ولداه، لقد أخبره ولداه أنّهما لم يعثرا أو يشاهدا على طول ذلك الدهليز في تلك الجهة على أيّ منفذٍ آخر... وأبو سرحان المحطمة عزائمه خوفاً على ولديه بالدرجة الأولى وعلى نفسه أيضاً... يهمس لنفسه ويقول:
أنا رجلٌ كبيرٌ في السن وقد أخذت نصيبي من الدنيا، أما الأولاد... هل سيضيع عمرهم في مغامرة وافقتهم أنا عليها؟ أين كان عقلي حينذاك؟ ثم يحاول تبرئة نفسه ويقول: لقد غُلبت على أمري، وفُرِضَتْ عليَّ تلك المغامرة فرضاً... ثم ينظر إلى بريق الذهب المتناثر على الأرض... فيراه وكأنّه يتحرك من نفسه، وليس بسبب حركة الأشواك التي تسببها الرياح في الخارج... يحس في بريقها مصيبة كبرى ألمت به وحلّت به وبأولاده، فلو لم يسقط ذلك الصندوق، من بين أيدي الرجلين لكانوا تابعوا طريقهم وخرجوا هم أي أبو سرحان وولداه من هذا

المأزق، ولا يهمه إن كانوا خالي الوفاض، وعاد بولديه بأمانٍ وسلامٍ، وانتهت هذه الورطة دون مشكلات.

مضتْ دقائق، قبل أن يصل إلى آذانهم صوت شجارٍ عنيفٍ، عرفوا ذلك من خلال النقاش الحاد. الذي بدا لهم كأنّه بين اثنين حين سمعوا أحدهم يقول لآخر غاضباً:

_ لقد هربا بالصندوق حين كنا قربهم، ثم رفع صوته مردفاً:

_لكن أنت لماذا لم تعرقله حين مر من قربك؟ رد الصوت الآخر:

لقد أطفأ مصباحه فور أن شاهدني، فأطلقت عليه النار قبل أن يختفي... يبدو أنّني لم أصبه، وربما أخطأته، ثم قام هو أيضاً بإطلاق النار نحوي عدة رصاصات نجوت منها. لكن المصباح أفلت من يدي... الحمد لله لم أصب بأذى كنت أشعر بأنَّ الطلقات ترتطمُ بالجدار حولي، وأنت تعلم كثرة الانعطافات في هذا المكان، والظلمة التي فيه... رد زميله: هيا نخرج الآن ونتبعهما، ربما أنّهما ما زالا قريبين، ونتتبع أثار عجلات سيارتهما، ربما نستطيع اللحاق بهما... وكرا عائدين، لكن هذا كان لسوء حظ الاثنين... كان بينهم وبين الثروة خطوات قليلة، أي الكنز

المبعثر... اختفت أصواتهما... يبدو أنّهما استدارا مسرعين وغادرا المكان...

بعد لحظات من الوجوم والصمت، قال أبو سرحان لولديه يطمئنهما: لقد رحل الخوف، يبدو أنّها عصابة انقسمت، أو أنّهما عصابتان تتسابقان على هذا الكنز، المهم نحن نجونا وعلينا الخروج، بأسرع ما يمكن هيّا بنا...

تعاونَ أبوسرحان وسرحان ولده على رفع السلم، وإسناده إلى الجدار بينما سلمان أخذ يجمع الكنز المبعثر، ويضع القطع في الصندوق المحطم، ومع أن والده كان يستعجله في الخروج، إلا أنّ سلمان قرر بينه وبين نفسه ألّا يخرج ويترك قطعة واحدة على الأرض، ثم لملم جنبات الصندوق وربطه بغترته بحيث ضمن متانته مؤقتاً وحمله على كتفه، بعد أن جمع كل ما كان متناثراً على الأرض، وصعد درجات السلم بحذرٍ شديدٍ، وتعاونَ مع سرحان الذي أدلى الحبل ونزل على السلم من جديد، إلى أرضِ النفق.

وبعد أن وصل سلمان إلى حيث كان أنزل السلّم بصعوبة إلى الأرض، ثم سجاه بقرب الجدار كما كان قد رآه أول مرة... عاد وتسلق الحبل مستعيناً بعقده الكثيرة... وصل سلمان إلى سطح الأرض وقرر تفريغ محتويات الصندوق

أمام الجميع... وهكذا كان... وكانت المفاجأة الكبرى فيما وجدوا داخله... وجدوا أنّ كل ما في هذا الصندوق عبارة عن مشغولات ذهبية حديثة، وليس كما توقع الجميع من قبل، أن يكون ما يحويه لقى ذهبية أثرية... لم تكن لتلك المصوغات أية علاقة بالآثار أبداً... ويبدو أنّها حصيلة سرقات متعددة... لكن قيمتها المادية كبيرة جداً، أي أن جميع المسروقات حصيلة عمليات سرقة وعمل عصابات فردية، أو جماعية، سأل سلمان والده:

_ كم تساوي هذه الثروة يا والدي؟ فقال أبو سرحان: ثروة كبيرة جداً... لكنّها لا تساوي الفرحة التي ستعم أصحابها حين تعود إليهم مسروقاتهم.

_ ماذا تقول؟!!! صاح سلمان:

_ بعد كلّ هذا الخوف والتعب، والعناء نترك هذه الثروة؟!

_ هذا هو الحل الطبيعي والإنساني.

_ ولماذا؟ إنّها ثروة حصلنا عليها صدفة، ومن حقنا، نحن لم نسرقها.

وأخذ يندب حظه ويقول:

_ أين أملي بسكنى المدينة؟! أين حلمي الذي يشغل بالي ليل نهار...

_ إذا كان هذا هدفك الوحيد اذهب واعمل هناك وطّور نفسك بنفسك.

_ هيّا اجمعوا كلَّ شيء، وأعيدوه إلى الصندوق هيّا... قلتُ كلّ شيء عندي... لنسلم تلك الحاجيات إلى أية جهة تختص بتلك الأمور... قبل أن يكتشف أمرهم معنا، ونقع جميعنا في ورطة كبيرة يصعب الخلاص منها... القناعة كنز لا يفنى.

ربما تحصلان على مكافأة كبيرة إذا سلمتم تلك المجوهرات وعادت إلى أصحابها، ووجه حديثه إلى سلمان، ربما ساعدتك تلك المكافأة للاستقرار في المدينة، وإراحة ضميرك... ذلك خير لك من عذاب الضمير والفكر، وحينذاك فقط تسكن المدينة التي أحببت...

أما بغير ذلك سندخل جميعاً السجن...

وعادت المسروقات الى أصحابها وحصل سلمان على ما أغناه وحقق أمله..

تمت بحمد الله

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر